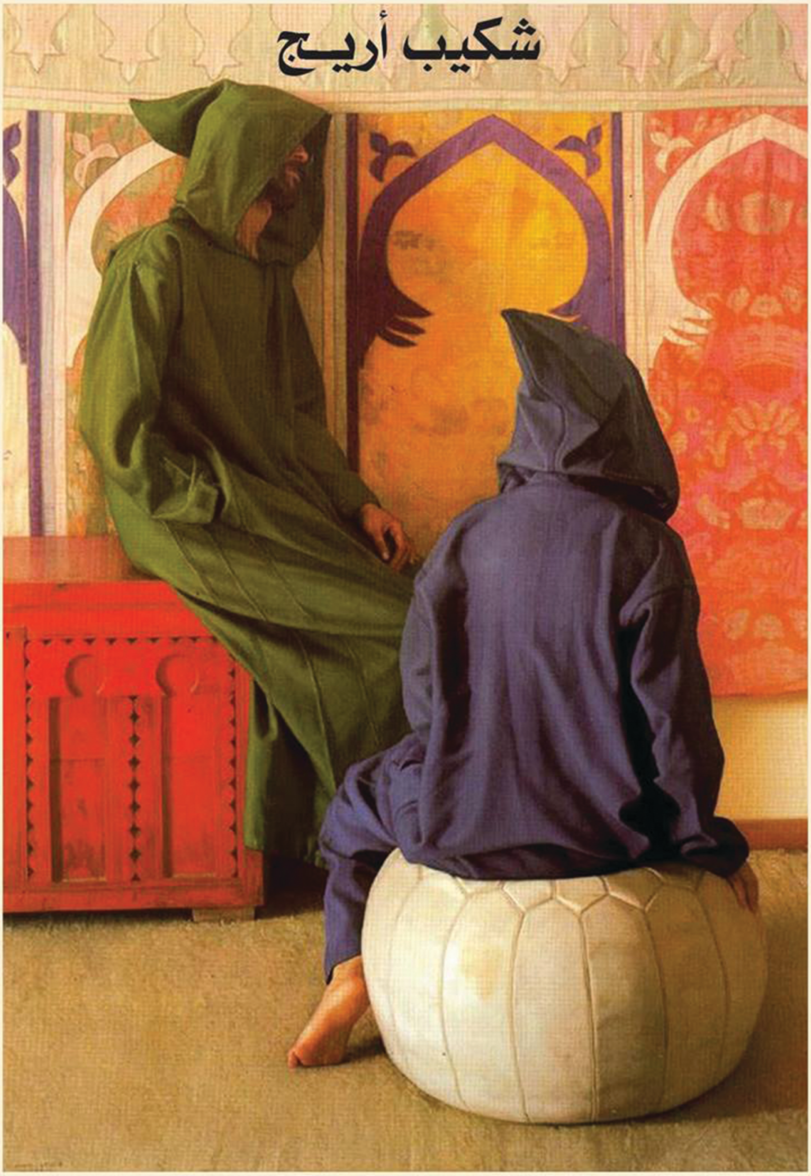
مدينة تأكل اولادها

شكيب أريـج

كائنات قصصية



مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

مـــــدينـــــة..

تأكل أولادها

شكيب أريج

مدينة..

تأكل أولادها

كائنات قصصية

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت – لبنان

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

الكتـــاب: مدينة... تأكل أولادها
الموضوع: قصص قصيرة
المؤلـف: شكيب أريـــج

ISBN 978-9953-594-83-5

الطبعة الأولى: 2018

لوحة الغلاف للفنان: Claudio Bravo

تصميم الغلاف:
القسم الفني في مؤسسة الرحاب الحديثة
تصميم وإخراج داخلي: حسين طه

هـاتــف: 359788 3 00961 تلفاكس:241032 7 00961
ص. ب 11/3847 - بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com

إليهما هناك..

بعيداً عن الوطن.

إليهما هنا..

زوجتي وابني.. هما الوطن.

الحلْقـــة

في البدء.. . كانت الحلْقة.

شيءٌ من اللاَّمعْقولِ، وقدرٌ غيرُ قليلٍ من السريَالِيَّة يُغريان بالوقوفِ في هذهِ "الحلْقة*"، قد لا تكون هَيئَةُ "الحْلايْقِي" بلباسِه العصري الأنِيق وبربْطة العُنق على شكل فراشةٍ أمراً كافيا، لكن يبدو أنَّ ما أغْراني أكثر بِحَجْزِ مكاني هو وقُوفُهُ وسط "الحلْقة" بجانب حمارٍ نظيفٍ أبيضَ، يبدو أنه يَلْقى من العناية ما لا يجده الصبْيَةُ المتشردون في الساحة وبين أزقة المدينة..

قال صاحب الحمار وهو يخاطب المتجَمْهرين المتَجَهِّمين وسط ساحة تبْتَلِعُ المدينة، قال من داخل "حلقةٍ" بدأت تكبر على حساب "الحْلاقِي" الأخرى:

---

* – "الحلْقة": عبارة عن مسرح شعبي، يشرف على تقديم فرجتها بعض الأفراد المتخصصين في فن الحكاية أو الإيماءة أو الألعاب البهلوانية. واعتاد هؤلاء الأفراد الذين يحترفون الحلقة أن يعرضوا فرجتهم وإبداعاتهم في البوادي والمدن، أسواقها وساحاتها – الدكتور حسن المنيعي. التقليد المسرحي في المغرب. ص63. سوماكرام. النصوص المختارة

هذا الحمار لن يصبح حريرا ما لم أُحَدِّثْكُم عن المدينة، هذا شرطُه الوحيد، فاسمحوا لي أن أحدثَكُم عن هذه المدينة:

.. مُسَوَّرة بالجهل.. تأتيها قوافل من الهوامش صباحا، على متن حافلات تكتَظُّ بنساء ورجال تَتَقَصَّفُ أجسادهم وتتمايل مع صرير الصفيحة الحديدية التي تُقلهم. أيديهم متشبِّثة بعمود أفقي معلق بسقف الحافلة. أجسادٌ معلقة مثل قطعِ لحمٍ بدكان جزار.. عرقٌ غزيرٌ، أجسادٌ تلتصق بأجساد، تدافعٌ، سبابٌ..

وينزلون من الحافلة.. ينتشرون في الأسواق والشوارع والأزقة والمقاهي وفي محيط الثانويات والمدارس..

وعلى باب مستشفى هذه المدينة تَتَجَيَّشُ الأعدادُ الرهيبة من الناس..

مستشفى اسمه "الرأفة" ولا رأفةَ فيه، بدون كراسي انتظار، الكرسيُّ الوحيدُ هو الشارع الطويل العريض.. مستشفى بئيسٌ، توجد فيه عبارات الاستقبال والترحيب وحسن المعاملة وتغيب فيه المعاملة والترحيب، ولا من مُستقبِل غير مُمَرِّض تَشعرُ أنه بنظراته الجشعة يُفتش جُيوبكَ..

إنها ليست مدينتكُم طبعاً، وأي تشابُهٍ بين مدينتي ومدينتكُم فالأمر محض صدفةٍ أو شَطْحُ خيالات، لكم مدينتكُم ولِي مدينتي.. حتى لو امتلأتْ هذه المدينةُ بالدرَّاجات وحتى لو خَلَتْ من الرصيفِ، لا يمنع أي شيءٍ من أن تكون مدينةً أخرى.. بدليل أن شبابها التائه في الحدائق وبجانب حيطان المعاهد التعليمية لا يحمل إلا الهواتف المسطَّحة، والسَّماعات في آذانه لا تفارقه، مُنشغلٌ جدا بالاستماع إلى المواعظِ والذكر الحكيم!! وبدليل أن ليس في وسطِ وسطها "حلقة" مثل هذه "الحلقة" وليس فيها حمارٌ مثل هذا الحمار الذي اسْتَمْتَعْتُم قبل قليل برقصه.. سأُحَوِّلُهُ أمامكُم بإرادة القادر إلى حمارٍ من حريرٍ !! هل لديكم شكٌّ في قُدرة القادر عز وجل؟؟ أَلَمْ يُحْيِ حمار "عُزير" بعد مائة عام؟؟ فما بالكُم تُشكِّكُون؟؟

اطمئنوا لن تنتظرُوا مائة عام، لكن قبل أن نُحَرِّرَ الحمارَ دعوني أُحدثكُم عن هذه المدينة:

في غفلةٍ منَّا تزدحِمُ شوارعُها بالغادي والرائح، وتظهر فيها بين الفينة والأُخْرى مواكب كبيرة، تتقَدَّمُها بقرةٌ كبيرةٌ سمينةٌ وأتباعٌ يحملون أعلاماً شامخةً يضربون الطبول والقَرْقَبَات ويوزعُون الدعوات والتَّمْر

المبارك.. التَّمْرة بركةٌ والتمرة بعشرة دراهمَ.. يَمُرون بجانب الأبواب، ومن حين لآخر تَفْتحُ امرأة عجوز البابَ تُنَاولهُم السكر والشاي والحلوى و.. . الدراهم.

إنها مدينةٌ مختلفة عن مدينتِكُم.. مدينةٌ مُسَوَّرة بالحزن والجوع والجهل، في كل حي قبةٌ بيضاءَ، وأمام كل مسجد سوقٌ، وفي كل ساحة بهاليلٌ، إن شئتَ معرفةَ تاريخ هذه المدينة لن تَجِده في كُتب المؤرخين والمفكرين.. تاريخُ هذه المدينة هو تاريخ الهَبَلِ والحمق.

هي مدينةٌ محافظة جدّاً، حافظت على مبنى "السينما" فحولته إلى مخزنٍ، ولم تعدِ السينما في المدينة إيَّاها تعرض أفلام الكَرَاتِيه والأفلام الهندية والأفلام الإباحيَّة، لم يَعدِ الأطفال والشبان المراهقون والشيوخ يَمُرون لتَتَلذَّذَ أعينهم بصور أبطال الكَرَاتِيه وصور الهنديات الجميلات وصور الأفلام الإباحيَّة..

وسائل نقلٍ صغيرةٍ وكبيرة تتقَيَّأُ أفواجاً بشرية وتبتلِعُ أفواجاً أخرى، مَقَاهٍ تستَنْفِرُ زُمَراً زُمَرًا.. بها كراسٍ كثيرة بعددِ الأرجلِ، وأحذية كثيرةٌ، وأفْواهَ كثيرة، وكلامٌ كثير، وسجائر كثيرة، مشتعلة ومُطْفأَةٌ،

ومشروباتٌ كثيرةٌ، وأكلٌ كثيرٌ، ومؤخِّرات كثيرة، وأعْينٌ كثيرة، ولَغَطٌ عظيم.

طوابير قصيرة وطويلة، أمام الشبابيك البنكية والبريدية، أمام الإدارات، أمام مَصالحِ اسْتخْلاصِ الكهرباء والماء، أمام الكُوميسَاريَّة، أمام الصَّيدليات، أمام المُستوصفات والمتاجِر.. عالمٌ يَنْغُلُ ويَنغُلُ.. مدينةُ انتظارٍ.

مساحات خضراء تنْكَمِشُ، وسماءٌ تَفْقِدُ زُرْقَتَها، وتتصاعدُ إليها أبخرة المأكولات والمشروبات وأدْخِنة السيارات، وسوادٌ يغزو الجدرانَ وتصْطَبغ به الأرضية والأرْصفة.. وفي الزَّحمة امرأةٌ وحيدة تَلْبسُ "حَيْكاً".

مُتسوِّلون.. مُتسَوِّلات.. في كل مكان.. أمام المساجد، أمام الشَّبابيكِ البنكية، بِجانب محطَّات الوقُودِ، في المسْتَشفيات والمقابر، في السُّوق والمحَطات.. .

مدينةٌ لا تُشبه أي مدينةِ البَتَّة.. حَلِّقْ عاليا وانْظُر.. كَرِّرِ النظَر.. حَلِّقْ أعلى فأعلى فأعلى ثم أعلى حتى تراها كما هي.. على حقيقتها..

مُتبولُّون على حيطانها العتيقة..

زُوَّارُ قِبابِها البيضاء..

مُتخَبِّطُون بين دُروبِها الضيقة بحْثا عن لُقْمة عَيش.

تائهُون مُتوَهِّمُون أنَّ كلَّ بيوتِ أزِقَّتها الشعبيةِ بُيوتَ مُتْعَةِ..

سُكارى كُثُرْ.. وحانات قليلة..

مناكِيدٌ يَجُرون العربات.. ومَناكيدٌ تَجُرُّهم عرباتُ الزمن..

فائضٌ من الوقت في الساحات والمقاهي ومسافات ضيِّقة من الزمن وعرقٌ غزيرٌ..

عرقُ الفلاَّحين.. عرقُ المُيَاوِمِين.. عرقُ العُمال.. "عرقُ" بائعاتِ الْهَوى.. عرقُ الْمَرْعُوبين.. عرقُ الْمَرضى.. عرقُ الْمُتْعَبِين..

حلقْ عاليا وانظُرْ.. كَرِّرْ النظرَ.. حلقْ أعلى فأعلى فأعلى ثمَّ أعلى حتى ترى عرقَهُم الْمُتكَتِّل في دوَّامة، في كأْسِ عِمْلاقَةٍ يَشْربُها مَخْلوقٌ قُطْنِي مُتَوَرِّدِ الْوَجْنَتَيْنِ يَطقُّ الدمُ من وجهه.

لا تسْتَعْجلوا يا سادتي الكرام، تحويلُ حمارِ اللَّحم والعِظَام هذا إلى حمارٍ من حريرٍ أسْهَل ما يكُون.. غير أَنَّ ما يجعلُني مُتردِّداً هو فُتُوركُم وضُعفُ حماسِكُم.. أشْعُرُ أنَّ الدهْشَة ماتت في عيونِكُم منذ زمن..

ما آخر مرَّة أُصِبْتَ يا هذا بالدهْشة؟؟ وأنتَ.. ألَمْ تشعُر لحظةً أن أرْنَبَةَ أنفِكَ المُتدلية مُثيرَة للدَّهشَةِ؟؟ وأنتَ لماذا تمُرُّ جنائزُ الموتى أمامَكَ وتكْتفِي بنظْرتِكَ البَلِيدة؟

ليس عسيرا عليَّ تحْويل هذا الكائن إلى حمارٍ من حريرٍ، ولكن تخَيَّلُوا معي أنَّني حمارٌ وأمامي كائنٌ بشرِيٌّ أحَولُه إلى كُتلة من حريرٍ، هل كانتِ الحميرُ حولي لِتَشْعُرَ بأيِّ إثارَةٍ؟؟؟

حاشا أن أكون حمارا وحاشا أن تكونُوا أنتم كذلك، إنَّمَا أقولُ هذا الكلام حتى لا تُخَيِّبُوا ظني، فليس هناك مأساةٌ أعظم من أنْ يقولَ البهلوانُ المهرِّجُ نُكْتةً ولا يضحكُ الجميعُ. وليس هناك مأساةٌ أعظم من أن تَتَغَيَّرَ مدينةٌ بأكملِها ولا يشعرُ بذلك أحد..

في المدينة إيَّاها التي أُحَدِّثُكُم عنها يوجد مُقابل ألفَ كوخٍ قصرٌ، ومقابل ألفَ حذاءٍ ممزق سيَّارةٌ فارهةٌ، ومقابلَ كل مشرَّد ألفُ شُرطي.

في المدينة إياها "رِيَّاضَات" جميلة ومُنَعَّمِين سَدَّتِ السُّمْنَةُ مَسَامَّ عَرَقِهم، لا تَطَأُ أحذِيتهم الصَّقيلَة مدينةَ الغبارِ، تُقِلُّهُم سياراتٌ فاخِرة.. كُلُّ هذا والحياةُ تسيرُ هادئةٌ وادعةٌ، ولا أحدَ يسْتَغْربُ أو يحتجُّ أو يتدَمَّرُ، بل هناك تَسليمٌ مُريعٌ بالأمرِ الواقعِ..

قدْ يحدُثُ نادرا أن ينظرَ مُتَجَهِّمٌ بعَيْنَين يسْكُن الجحيم داخلهما إلى المُنَعَّمِ على صهْوةِ سيَّارتِهِ الفارهةِ.. (**يتَقَمَّصُ "الحْلايْقِي" دَورَ المُتَجَهِّمِ**) ويقول على لسانه:

- بْغِيتْ لِيهَا جَهنَّم تْحْرَقْهَا !!

يُغَيِّر "الحْلايْقِي" موقِعَهُ ويَنْفَخُ صدرَهُ مُتَقَمِّصاً دورَ المُنعَّم على السيَّارة الفارِهة:

- لماذا؟

إنْ شِئتَ أنْ تعرفَ لماذا؟.. اجْلسْ هنا في هذه الساحة العجيبة حيث الحياةُ تدورُ بكَ ولا تَدورُ بها، من هذا المَرصِد يمكن أن ترى وبِعَفْوية شديدة. الذين يُكافحُون ويَغْنمُون، والذين يَرِثُون ويَمْرَعُون والذين يُهَانُون ويُهِينُون يَعرفُون لماذا..

والذين يَسْأمُون ويَتَثَاءَبُون وينامُون ويَسْتَيْقظُون على جَرَيان الحَيَاة بهذه السَّاحة يَعْرفُون القِصة.. والذين يَحْفِرُون والذين يقَعُون والذين يَرْضَوْن بالكفاف ويرْضَخُون ويُذْعِنُون يَعِيشُون القِصة.. والنَّازِحُون والمُهَجَّرُون تَحْضُنُهُم الساحة بدِفْئِها وبِبُرُودتِها ويعْرِفُون.. والمُفَكِّرُون وَالمُكَفِّرُون والمُثَقَّفُون والمُسَيِّرُون والمسيَّرُون كلُّهم تعُجُّ بِهِم السَّاحة..

والْمُتَطَفِّلُون والْمُتَقَلِّبُون والْمُتَعَجْرِفُون والْمُتَأَوِّهُون وَالْمُتَسَلِّقُون والْمُتَهَوِّرُون والْمُغَامِرُون كُلُّهُم تَنْبِضُ بِحَكَايَاهُم هذِهِ السَّاحة. فَاتَّخِذْ مقعدك بها تَـرَ في الوُجُوه أبْوابا وساحات وأزقَّةً وأسوارًا وأطفالا وأصْواتاً..

بعينين سترى كل هذا وبِعينِ ثالثةٍ أُعيرُها لكَ سترى حمارَ الحريرِ، ستَرَى "حْلَاقِي" انْحَشر داخلها الْمُتَجَهِّمُون الذين في أعْينِهم جحيمٌ وقدْ بدأَ أُوَّارُ النار يَخْمدُ شيئاً فشيئاً وسَتَتَوَارَى جَمراتُ عُيونهم خلف رمادٍ هادئ.. سَتَرَى امْرأَةً وقد وضعتْ أمامها رغيفَين وبيضا ولم يستطِع الزمن النيْلَ من قَسَمَاتِ وجهها، تحكِي جلْسَتُها عن أبنائها الذين سافرُوا ولم يعُودوا، وعن أحْفادها الذين لا يعرفُونها ولا تعْرفُهم، عن أبنائها الذين بَادلُوها الحنانَ بالعُقُوقِ، والذين أحَبُّوها والذين تَنَطَّعُوا وتَمَرَّدُوا.. صمتُها يُفْشي قصص الْمُنَعَّمِين والْمُتجهِّمِين معاً.. أدارُوا ظُهُورهم لها وانْحَشَرُوا في "حْلاقِي" الساحة..

اجْلسْ هُنا في هذه الساحةِ العجيبة سَتَرى عجبا.. "حلقة" واحدةٌ تأكلُ بقيَةَ "الحْلاقِي" والْمُتجَهِّمُون تخْبُو نيران جحيمهم أكْثر وهُم يَتَحَلَّقُون حول "حْلايْقِي" لَفَظَتْهُ المدارسُ والجامعاتُ والمؤسساتُ، قضى عمْرَهُ هائماً بين الأوراقِ والكُتب والْمحاضرات والْمُناظرات

والمُلتقيات والمَقاهي، يحكي بِعفويَّةٍ عنِ الحياة كما هي، وعنِ الواقع كما هو، غيرَ أنَّ الناسَ لم يأْبَهُوا له، ولم يُصَدِّقُوهُ، ربما لأن نُباحَ الكلابِ الْمسعُورة يتخَلَّلُ سردَهُ أو ربما لأنَّه بارعٌ في نَكْيِ الجراحِ.. أو ربما لأنهُ يقول كلاماً معقولاً جداً.. فلْيُجَرِّبْ مرةً واحدةً أن يكون لامعْقُولاً ولْيتَحدَّ عقُولكُم بِحمارٍ مُسْتكِينٍ.. أليس هذا ما يفْعلهُ السَّاسةُ والمُفَوَّهُون بعُقُولكُم؟ أليس هذا ما يفْعلهُ الإعلامُ بعقُولكُم؟ أليس هذا ما يفعَلُهُ الدجَّالُون والمُشَعْوِذُون والكَهَنَةُ بعقُولكُم؟؟

المناكبُ العريضةُ والرؤوسُ الفضُوليَّةُ سَتُخْفِي عنكَ الرؤْيةَ ولن تَرى أنتَ الجالسُ غير المرأةَ بـ"حَيْكِها" تجْلسُ الْقُرْفُصَاءَ وأمامَها رغيفٌ وبيضٌ.. لا بأس سَتَرى بعَينٍ ثالثةٍ أَعَرْتُها لكَ المُشهدَ..

أقولُ لكُم: الذي لا يرى أنَّ الحياةَ مُعجزةٌ. والذي لا يشعرُ أنَّ المدينةَ تتحَوَّلُ إلى مسخٍ لن يُصدِّقَني.. ها هو الحمارُ صدِّقُوا أو لا تُصَدِّقُوا.. صبرُكُم وحدهُ لو تَدْرُون كفيلٌ بتحويله إلى ذهبٍ وما أنا العبْدُ الضعيفُ بلا حولٍ ولا قوةَ بِمُسْتَطِيعٍ عَمَلا، لكن أَعِينُوني بثلاثة أشياءَ: كرمُكُم وصبرُكُم وإنصاتُكُم..

صبري عِيلَ ولم يكن بمقْدوري مُتابعةُ هذه "الحلْقة" إلى نهايتها، وقد حاولتُ أن أنْسحِبَ، لكني كُنتُ كلَّما تراجعْتُ إلى الخلفِ وجدْتُ صفوفاً أخرى تَتَضاعفُ، وشقَقْتُ طريقي نحو الخارج، لأَبْتعدَ عنِ المُتفرِّجين المُتجهِّمِين، لكن وكأنَّ الساحةَ بأكملها تَحَوَّلَتْ إلى "حلقة" عمْلاقَة..

هل يستحقُّ انتظارُ تحْويلِ حمارٍ إلى حريرٍ كل هذا الاهتمامِ؟. تابَعْتُ السيرَ طويلاً أبحثُ عن مخرجٍ لي منْ هذه الزحْمَةِ، لكن يبدُو أنَّ المدينةَ كلها تحولتْ إلى "حلْقة" ولم يكُن بإمكاني الانْسِحَاب أو حتى الاكْتِفَاء بالمُشاهدةِ فقد أصبحتُ جزءاً منَ "الحلْقة" إلى جانبِ الحمارِ وصاحبِه والجمهورِ.

مُسْتعْجلات

1- مُسْتعْجَنَاتٌ

كأنَّ سقْفَ السماءِ واطئٌ في هذه المدينةِ.. كأنَّ الشَّمسَ صفارُ بيضٍ تَعَفَّنَ على نافذةٍ مُشْرَعَة على مزبلة.. ورمَتْنِي إحدى بوَّابات المدينة أمام بنايةٍ، كأنَّمَا هَبَطَتْ من السماء، لأقْرأَ لافتةً كُتِبَتْ بالخطِّ العريضِ: "مُسْتَعْجَنَاتٌ".

اسْتبْشَرتُ خيرا، وقلتُ في نفسي: لا مكان أَلْيَقَ بكائنٍ خُبْزي مِثلي مِن هذهِ "المُستعْجَنات". حَثَثُّ الخُطَا إلى الداخلِ، ورأيتُ فيما يرى الرَّائي أُناساً يُهَرْوِلُون بِمحَفَّاتٍ مُغَطَّاةٍ.. يَتَوَقَّفُون طويلا هنا وهناكَ.. رأيتُ اللَّحْمَ الْبشَريَّ معْجُونا، وفي داخل الداخل أُناسٌ مُمَيَّزُون بِبِذْلاتٍ مختلفةِ الألْوانِ، مُنْهَمِكُون في تدْلِيكِ وعجْن اللحْم البَشَري،، أطرافٌ مُترهِّلةٌ، عِظامٌ مدْهُوسةٌ، رقبةٌ مُلْتَوِيَّةٌ على أنفٍ على بطنٍ على فكٍّ.. ومن

أقصى المدينةِ جاء رجلٌ يَسْعى.. اخْتلَط الماءُ فيه بالترابِ بالدمِ بماءِ الْحياةِ بالمُخاط بالدخانِ..

لا لا لا.. لا يمكنُ أن تكونَ هناك بنايةٌ باسمِ "المُسْتَعْجَنَات" داخل أسوارِ مدينتي..

2 - "مُسْتَـ/ عَذَابَاتٌ"

كأنَّ ليلَ المدينة عقاربٌ تُولد من باذِنْجانةٍ مُتعَفِّنةٍ نَتِنَةٍ.. كأنَّ القمرَ بُقْعةٌ بَرْص على جسدِ المدينةِ.. ورمَتْني إحدى بواباتُ المدينة أمام بِناية قرأتُ على بابها لافتةً بعنوان "المُسْتَـ/ عَذَابَات".

قلْتُ في نفسي: هل هناك عذابٌ أشدّ من عذابِ البقاءِ عند أبوابِ بنايةٍ نَبَتَتْ فجأةً في مدينتي؟..

ودخلْتُ. وكنتُ شاهداً ومُعذَّباً..

العذابُ الأولُ.. الانتظارُ الظُّفْرُ المغروزُ في خاصِرةِ الزمن حدَّ الإدْمَاءِ.

العذابُ الثاني.. طفلٌ يَئِنُّ من الألَمَ وأبٌ عاجزٌ وأمٌّ ضعيفةٌ.. أنِينٌ أنينٌ ومُمَرضة مُتدرِّبةٌ تضعُ سمَّاعَتَيْ موسيقى في أذُنَيْها، وقد تدَلَّى منهُما

قُرْطَان الواحِدُ في حجْم الكَمَّاشَة الحديدية التي انْغَرَسَتْ أنْيابُها/ شَفَرَاتُها بين لَحْم وعظمِ الطفل وهو يَنْزِفُ ويَئِنُّ.. يَنِينُ.. يَنِينُ.. يَنِينُ.. والشابَّةُ تَتَمَوْسَقُ.. تَتَمَوْسَقُ.. تَتَمَوْسَقُ.. تَتَمَوْسَقُ..

العذابُ الرَّابعُ: صمتٌ وخوفٌ.

العذابُ الخامسُ: عذابُ قبرٍ.

العذابُ السادسُ: الإهمالُ والاسْتِهْتَارُ.. وطبيبٌ يظهرُ.. يَمْرُقُ.. يغيبُ.. يعودُ.. يَمُرُّ.. يَخْتفي..

العذابُ السابعُ: كلُّ مريضٍ رقمٌ، جيبٌ، صُرَّةُ مالٍ، مصْلحةٌ.. . افْتَحُوا جُرْحَ جيبِهِ وخِيطُوا جُرْحَ جسدِه..

العذابُ الأخيرُ: لن تخرجَ من هذهِ البناية سليماً.. وإنْ تخرُجْ فبدونِ قلبِك، بدون إنسانِيَّتِكَ.. أو بدون عقلِكَ.

لا لا لا.. لا يُمكنُ أن تنْمُو بنايةٌ باسم "المُسْتَـ/ عَذَابات" كالدَّمْل المُتَعَفِّنِ على جسدِ مدينتي.

3 – "مُسْتَهْجَنَاتٌ"

كأنَّ الناسَ في هذهِ المدينةِ أمواتٌ.. كأنها –المدينةُ– مستشفى كبيرٌ وقسمُ "المُسْتَهْجَنات" قسمُ الأصِحَّاء.. الأقويَّاء.. أقويَّاءٌ على تَحَمُّل الإهانة.. على تَحَمُّلِ المَذَلَّةِ.. أصِحَّاءٌ والصمتُ دواؤُهُم.. نُعُوْشٌ مُتحرِّكةٌ، خِرافٌ تُساقُ.. طوابيرُ تقفُ هنا وهناك.. تُحْلَبُ هنا وهناك.. تُوَبَّخُ.. تُعَنَّفُ.. وقال الطبيبُ "الجُنتلْمَان":لا تأْتِ إلى قسْمِ "المُسْتَهْجَنَاتِ" إلا إذا كنْتَ مُصاباً برصاصةٍ في الرأسِ ولا تَنْسَ إحضارَ بطاقةِ هَويَّتِكَ، وبطاقةُ "الرَّامِيدِ".

وقال المُمرض باسْتِهْجانٍ: "الله يْرَحَمْ وَالِدِيكْ" سألتُ صاحبِي – الذي جاءَ لِلْمُسْتَهْجَنَاتِ بعد أن أُصيبَ بِرصاصَةٍ في الرأسِ وجاءَ ومعهُ بطاقةُ هَوِيَّةٍ وبِطاقةُ "الرَّاميدِ"– : لماذا يَتَرَحَّمُ هذا على والدَيْكَ؟؟

أجَابني: – إنَّهُ يَسْتعِيرُ العبارةَ التي أمْطرتُهُ بها، فمِن طِيبَتي وقِلَّةِ حِيلتي أمامَ مرضِي كنتُ أتوسَّلُ إليه كل لحظةٍ "الله يْرْحَمْ والديكْ" هل فهمتَ؟؟ إنها عبارةُ اسْتِهْجَانٍ لأنني لم أَسْتطِعْ أن أُعْطيه لقاءَ خدماتِه الواجبة سوى "الله يْرْحَمْ والِدِيكْ".

أقلعَتْ سيارة الطبيبِ الجرَّاح باتجاهِ مَصَحَّتهِ الخاصة.. أقلعتْ سيارةُ الطبيبِ المُداوِمِ اتجاهَ نادِي التنِس.. وصلتْ سيارة الإسعاف.. نُقِلتْ محِفَّاتٌ ومحِفَّاتٌ.. إلى الأسِرَّةِ.. وعلى الأرض.. إلى برَّادَةِ المَشْفَى..

الآنَ أيْقنْتُ إن "المستهجنات" مكانٌ نضعُ فيه الإنسانَ، الكائنُ الرمادِيُّ، الحِرْبائِيُّ، الزئْبَقِيُّ، المِزاجِيُّ، الهَجِينُ.. ونتأَكَّدُ من شكلِهِ النهَائِي: أَسَبُعٌ هو أم فأر؟؟ أ ذِئْبٌ هو أمْ حملٌ؟ أ َملَاكٌ هو أم شيطانٌ؟

لا لا لا.. لا يمكنُ أن توجدَ بنايةٌ باسمِ "المُسْتَهْجَنَات" داخل أسْوار مدينَتِي..

الألمُ لا يُنْسى.. الألمُ ماردٌ يحْتَقِنُ، ينمُو كَكُرةِ نارٍ.. تَتَدَحْرجُ.. تَتكَوَّرُ في بكاءِ طفلٍ، في أَنَّةِ عجُوزٍ، في غصَةِ مريضٍ، في شهْقةِ أُمٍّ، في صرْخةِ: "**لا**".

الملعونة

"خَنْدُوشَة" هكذا كانُوا يُلقِّبُونني في أُسرتي، وهو تشْويهٌ مقصودٌ لاسمِ "خديجة"، قد تَتَعَجَّبُون لهذا الاسم الغريب، لكن سُرعانَ ما يزولُ عَجَبُكُم إذا عرفتُم سَبَبَ تسمِيَّتي.

لا شكَّ أنَ لكُل اسمٍ مناسبةٌ، والمُقترِحون للتَّسمِيَّات يتسابقُون على فَرْضِ الاسم قبل وضع المَوْلُودِ أحياناً، ولا شكَّ أن لكلِّ اسمٍ قِصة.. ولاسْمِي قصَّةٌ مُخْتلفةٌ..

لقد كان يومَ ميلادي يوم شُؤْمٍ على أمي وإخْوتي، ففي هذا اليوم عاد أبي بعد غَيْبَةٍ طويلةٍ كعادتِه لِيَزُفَّ للْعائِلةِ بُشْرى زواجِهِ من امْرأةٍ ثانيَّةٍ.. ومن شدَّة فرحِه بزوجتِه الجديدةِ أسْمَاني بِاسْمِهَا.

هكذا أصبحتُ موضِعَ تشاؤُمِ أمِّي التي تُربِّي اللَّعنةَ/ الضُرَّةَ في شخْصِي، وإخوتي الذين لا يَنْطِقُون باسْمِي بل عَوَّضُوهُ بـ"خَنْدُوشَة".

كَبُرتُ وكَبُرتْ معي المأساةُ..

***

عِشتُ في بيتٍ بئيسٍ، وفي الوقت الذي كان يُسْمَعُ فيه صوتُ القرآن الكريم مُنْبعِثاً من بيت الحاجِّ "مبروك"، لم يكُن يُسمَعُ في بيتنا الغارق في بُؤسه وشُؤمِه غير سُبابِ والِدِي الْمُقذع وهو يَنْعَتُنِي ويَنْعَتُ أمي بأشَدِّ الألفاظِ إهانَةً لِلْإنْسانيَّة، كان فمُه أشْبَهَ بِثُقْبِ مِرحاضٍ.. ملامحُ وجهِهِ الْمُتَهَدِّمَةِ تُوحي بالسنواتِ الْعِجاف التي مرَّ بها أوْ مَرَّتْ به، ونظراتُه الْمُتوَثِّبة من خلف زجاج الْعُوَيْنات تؤكد أنه شخصٌ مَارَسَ كلَّ الْمُوبِقات.. وجهُه الحادُّ القَسمَات وابتسامتُه التي تكْشفُ فمَه الأدْرَدَ لا تبعَثُ على الاطمئنان.. ويَحدث أن يتوَضَّأ هذا الرجلُ العَصَبِي المزاجِي في باحة المنزل دون أنْ يكُفَّ لحظةً عن سبِّ الفقر والحظِّ العاثِرِ بأعلى صوتٍ.. تُطَأْطِئُ أمّي رأسَها في ذُلٍّ وهي تعرف أنَّ الجدارَ الْمُوالي لباحة البيتِ بدون سقْفٍ وهو لا يكاد يُخْفي عن جِيرانِنا غير الرُّؤْيةَ، وعليه فَهُم ولا شك يسْمعون كلَّ التقْريعِ والسِبابِ العالي ويتحَّملون أيضا الاسْتِماعَ إلى الألفاظِ النَّابِيَّةِ..

***

وخلف الجدار الذي يفْصِلُ الأُسْرَتين كان هناك في الطَّرفِ الآخر مَنْ يتألَّمُ لأحوال أُسْرتي التَّعِيسة ويقُولُ لي إنَّ قلبّهُ يَخْفِقُ بِحبِّي.

كان "عماد" شاباً عاطلاً في مُقْتَبل العمر، حادَّ النظرات.. والنظراتُ الحادَّةُ لا يمتَلِكُها إلا أصحابُ الأفكار المُتَوَقِّدَة، منذ صِغره وهو يُخطِّطُ لِمُستقبلِه بِخُطا ثابتة، وشعارُه في الحياة :(التقدُّم خطوةٌ واحدةٌ، يَسْتدعِي التفكيرَ، فَلْتُمارسْ في كل مرَّةٍ تقْنيَّةَ الْبرْقِ)

نعم، تِقنيَّةُ البرق هي التي أوْقَعَتْه في التسَرُّع، فحالما فكَّر في حُبه لي أرسل بَرْقِيَّةَ حُبٍّ.

***

وفي ذلك الصباح المُمْطِرِ، أمطرتِ السماءُ حبّاً، فلأوَّل مرةٍ في حياتي أتَلَقَّى كلمةَ حُبٍّ، فتحْتُ هاتفي الخَلَوِي لأجِدَ الرسالةَ، ارْتَبَكْتُ لِلْوَهْلَة الأولى، شعرتُ بقشْعَريرة تسْرِي في قلبي، وفي كُلِّ الْقِصص التي قرأتُها لم أشعُر بذلك الإحساس، توقَّعتُ بأن يَتكَهْرَبَ القلبُ، بأن تَتَصَلَّبَ شرابيني، بأن تتَوقَّفَ دقَّاتُ قلبي لِلَحظةٍ، ولكنَّ شيئا من ذلكَ لم يَحْدُثْ، بَقِيتُ شاردَةً للحظاتٍ..

– ما بِكِ أيَّتُها الملعونة؟ هَزَّني صوتُ أخي، صوت أجَشُّ، جافٌّ، وفي عينيهِ شَرَرٌ أحْمَـرُ، اقْتربَ مني ورائحةُ الشِّيشَةِ التي لا يُفارقُها تَفُوحُ منْه وخَضَّنِي بِعنفٍ وهو يَصِيحُ:

– ماذا بكِ أيَّتهُا المْهْبُولة؟ مَرَّرَ أصابِعَه الخْشِنة على شفَتَيَّ الندِيَّتَيْنِ وأضاف:

– ما بَالُ شفَتيْكِ مُبرْقَعَة باللون الأحمَر وكأنَّك تَعُضِّينَ على البطِّيخِ الأحْمر؟؟

شعرهُ القُنْفُذِي والقرطُ المُتدلِّي من مِنْخَره والنُّدْبةُ على حاجِبِه الأيْسَر كلُّها أمورٌ كانت تُثِيرُ الرُّعبَ في نفْسي، إنَّه الأخُ الأصغرُ في البيتِ والنُّسخةُ الثانية لأبي، وأنا أحدِّقُ في عينيه لا أدْري كيف تدَاعَتْ إلى خاطِرِي صورةُ "عماد" الفتَى ذِي الوجْهِ الصَّافي منَ النُدُوبِ بِعينَيْنِ في لونِ الأملِ.. تَخَيَّلْتُ أنِّي أمشي بِجانبِه، لكنْ ما لبِثْتُ أن ارْتعَبْتُ لهذا الخاطِرِ المُفْزِعِ، فلو عرف "عماد" أنَّ لي أخاً غولاً لما تجَرّأَ أن يُرسِل إليَّ رسالةَ حُبِّ.. لو رأى صَدرهُ المُنْتَفِش تُزيِّنُهُ قلادةٌ تحمل جُمْجُمة معدِنية لابْتَعَدَ عن طريقِي.

***

صوتُ طرقاتٍ مُزعجَة قُبَيْلَ الفجر.. إنَّه كالعادة والِدي السكِّيرُ المُعَرْبِدُ يُزْعج أهالي الحي كُلهم قبل أن يدخُل بيتَه، وأطرَفَ ما في الأمْرِ أنه كان يَغْتَسِلُ سريعاً ويُسابقُ "علال التِنِسْ" والحاج "مبروك" إلى

الصفُوفِ الأمامِيَّة بِمسجدِ الرَّحمة. كان ذلك قبل أن يُصاب الحاج "مبروك" بِلَوْثَةِ الشعرة ويعْتكِف في بيته، في ذلك الزمن قبْل أن يكون وَلِيّاً صالحاً عُرف بثرائِه، فهو صاحبُ قاعةِ حفلاتٍ، وإيجَارُها يُدِرُّ عليه أموالاً طائلةً. أنْعمَ الله عليه فحجَّ واعْتَمَرَ، وبفضل سِعَةِ رزقه اشترى أضَاحِي كثيرة لِلفقراء، وكان يرى الفرحَ يتَرَقْرَقُ في عيونٍ كثيرةٍ حين يَرِقُّ لِـحَالِ الْمُعوِزِين ويتَكَرَّم ويتنازَل لهم عن نصف إيجَار القاعة أو عن الإيجارِ كاملاً.. السُّبْحَةُ في يده اليُمنى ومفاتيحُ خزِينة الأمْوال في اليدِ الْيُسْرى.. زُبناؤُهُ الذين لم يكونوا يتناقَشُون معه طويلاً حول ثَمنِ الإيجار جُلُّهُم من الْمُغنيين والشِّيخَات والرَّاقصات وأصدقاؤُهُ أغلبُهُم من أصحاب اللّحَى والجلابِيب، يلتقي بهم في مسجدِ الرَّحمة أو قريبا منهُ، كان أحدُهم يبيع السِوَاكَ وأشْرِطة القرآن وآخر يجُر عربةَ فواكه وآخر يبيعُ أوانِي الزجاج، تجَرَّأ هذا الأخيرُ مرَّةً وقال له أمام الناس وهم يخرجُون من المسجِد:

-يا مولانا.. إذا كان الْمُؤَجِّرُ يعلَم أنَّ قاعات الحفلات سيُؤَجِّرُها الْمُسْتَأْجِرُ لارْتِكابِ الْمُحرَّمات مثل الرَّقص والغناء والموسيقى والاخْتِلاط فإثْمُ ذلك عظيمُ، وأنتَ رجلٌ تَعرفُ

ربّنا، أليس هو القائلُ " وتعاونوا على البِرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإِثْمِ والعُدوان"

لم يَجِرِ الحاج "مبروك" جواباً وردَّ عليه:

- أنا غيرُ مسؤولٍ يا بنيَّ عمَّا يحدث في القاعة، أنا أُؤَجِّرُ القاعة فقط بدون مطربِين أو راقصِين، وأُؤَجِّر كراسِيَّ وطاولات وزرابِي فقط.. انظُر يا بُنيَّ هذه الكؤوس التي تبيعها لأجل شُرب الماء أو الشَّاي أو الحليب، هل أنت مَسْؤولٌ عن الذين يشْترُونها منك لأجل أن يَشْربوا منها خمراً أو سموماً !!؟

تناقلَ الناسُ يومَها كلامَ الحاجِّ "مبروك" بإعجاب وَتَفَكُّهٍ، لكن مطارِقَ كثيرة ستَعْمَلُ في رأسه منذُ ذلك الحينِ ولن يَهْنَأَ بالُه إلا حين يَبِيعُ القاعة يوماً ما.. والحقيقة أنَّ الحاجَّ "مبروك" كما روتْ لي ابنتُه لم يكُن راضياً تماماً عن أحوالِ عمله وهو يرى نساءَ يُبالِغْن في تبرُّجِهِنَّ وإثارَتِهِنَّ ويُفْرِغْن جُنونَهُنَّ رقصاً ومُيُوعةً.. ولم يكن مُرتاحاً وهو يرى ذُكوراً مُخَنَّثِين، وآخَرِين يَرْمون بالأوراقِ الزرقاءَ على الصدُور النَّافِرةِ على وقْعِ الأهازِيجِ والأنْغام والأضْوَاء المُلونة..

كان الحاجُّ "مبروك" رجُلاً طيِّباً وجهه رمزٌ للبراءة، يَزِيدُهُ الصمتُ وقاراً، وإنْ نَبَسَ بِبِنْتِ شفةٍ فلا لِشيء إلا لِيُسبِّحَ ويستغْفر ربَّه، رَزقَه الله ابنةً واحدةً هي مَنْ يُؤنِسُ وحدتَه بعد أنْ فارقت أمُّها الحياة أثناءَ ولادتها. ولم يكُن وَرَعُ الحاج "مبروك" لِيمْنعَه من الإقبَال على الحياة خاصَّة في شبابِه، وكان ولا زال ذَوَّاقاً للفنِّ الأصيلِ، يعشق نغمَةَ "محمد عبد الوهاب" و"فريد الأطرش" ويَطرَبُ لِصوت "أم كلثوم" و"فيروز" ولهذا لم يكن مُفاجئاً أن يُسمِّيَ ابنتَه الوحيدة "فيروزة" للتعبير عن مدى إعجابه بصوتٍ ملائِكِيٍّ يذُوب في تَمَوُّجَاتِهِ.

نشأت "فيروزة" البنتُ الوحيدةُ في أحضان الحاج "مبروك" مُدَلَّلَةً و وَرِثَتْ عن أبيها سكينَتَهُ ووداعتَهُ و وَرِثَتْ عن أخوالها بعضَ المُكْر.

كبرتْ "فيروزة" وكبُر الحُلمُ..

وكالعادة فإن أوَّلَ حُبٍّ يتكَوَّرُ.. يُولد.. يَبزُغ.. يُشْرقُ.. هو حبُّ ابنِ الجيران.. وابنُ الجيران هذا الذي أوْقَع "فيروزة" في حَبائِلِه لم يكن سوى أخي الأكبر، أخي الذي لا أعْرف إلى الآنَ أيَّ سِحْرٍ يَمْلكُه، فلا عملَ له ولا طمُوحَ ولا وسامَةَ ولا مال، شخصٌ مُمِلٌّ ورَتِيبٌ ولا يعرف

شيئاً عنِ الحياة غيْرَ الصمت والتَّجاهُلَ واللَّامُبالاةَ والجُلوسَ مثل تِمْثالٍ نُحاسِيٍّ طوال اليوم بالْمَقهى.

نَمَا هذا الإحساسُ الغريبُ بِحُبِّ هذا الأخ الْمُضْجِر في أعماق "فيروزة" لم تَتَعَمَّدْهُ، لم تَتَصَنَّعْهُ، على حدِّ تعْبيرها، في عينَيْها هو رجلُ الجريدةِ والعمود، صامتٌ لا تفارقهُ الجريدة.. أدْمَنَتِ الْمُرور أمام المقهى الذي يَقْبعُ فيه، في مكانه الأثِير بجانبِ العمود.. وكلَّما رأتْه اهتَزَّتْ مشاعرُها كـ"حبْل غسيلٍ"، هكذا كتبتْ في إحدى دفاترِ خواطِرها، التي سَيقْرؤُها أخي الْمُضجر يوماً ما وسيُعلِّقُ عليها باسْتِعْلاءٍ:

- ألم يكنِ الأنْسَبُ أن تقول كَوَتَرِ قِيثارةٍ، كَرِيشةٍ في مَهَبِّ الريح، كَوَرَقَةٍ.. إنْ خانَهَا التعْبيرُ فقد خانَهَا الشعُور.

حين نقلتُ إليها عبارتَهُ الأخيرة الجارحة الخالِيَّة من الذَّوْقِ، أعْجِبَت بكلِماته وظلَّتْ تَعْشَقُه، وواظبَتْ على زيَّارتي ليس حبّاً في سواد عَيْنَيَّ طبعاً ولكن لأجل اخْتراقِ عالمِ مَعْشُوقِها.. ولأجل اكْتِشاف أسرار عُزْلتِه وصمتِه.. والاقترابَ أكْثرَ من عالمه، والتوَغُّلَ فيه إلى أبعدِ حدٍّ، وكم ترَجَّتْني أن أسمح لها بالدخُول إلى غُرفته.. هناك لَمَست فِرَاشه، واسْتعملَتْ فُرشاةَ أسْنانه علَّها تَتَذَوَّقُ طعْم قُبلته، غافَلَتْني وجرَّبت

عِطره المُميَّز، وتجرَّأت وفتحتْ ألبُوم صُوَّرِه، ولم تُخْف عني الغَيرة التي نَهَشَتْها وهي تَرى صديقاته أيام الدراسة. ولكنَّ أشدَّ ما كان يُغِيظُها هو تجاهُله لها، كانت تُعَزِّي نفسَها كلَّ مرَّةٍ بأنَّ طباعَه المُسالمة واحتِرامُه الزائِد لها هو ما يجعله يتجَنَّبُها، وما جعلها تَتَأَكَّدُ من هذا الخاطر هو وقاحةُ أخي الأصغَر والذي كثيراً ما كان يُعاكِسُها خارجَ البيت وداخلَه، في فُرنِ الحيِّ، وأمام دكَّان "علال التِنِسْ"، وفي طريقها إلى الدراسة. اشْتكَتْ لي تصرُّفاته وكأنِّي قادِرَة على تأدِيبِهِ وكبْحِ جِمَاحِه، وبِقدْر ما كانت تُكِيل له من الحِقد والكراهِية كانتْ تفْتَح قلبها لي وتَسْتَغْرِقُ في مدحِ أخي الأكْبر.

ذلك الأخُ الذي لم يكن في نظري يعني شيئاً. فوجودُه وحضورُه سِيَّانِ بالنسبة إليَّ، لم يُعلِّقْ يوماً على نجاحي أو رُسُوبي، كلُّ مبادرة مِنِّي لإشراكِه في شُؤوني يُجْهِضُها بصمته ولامُبالاتِه، مرَّةً واحدةً فاجأنِي حين وضع بين يديَّ عِقْدا نفِيساً طلب مني الاحْتفاظَ به، ويبدُو أنَّهُ لم يكن مُكْترِثاً أو مهْتمّاً بقيمتِه.. ولسُوءِ الحظِّ لم تَمُرْ أيام قليلة حتى اختفى العِقدُ ووَلْولْتُ وبكيتُ بحرقة طويلاً حتى احمرَّتْ عيناي، وبعد حينٍ تأكَّدتُ أنه أخي الأصغر مَنْ فَعَلَهَا وسَرَقَ العِقدَ، لا شكَّ أنَّهُ باعهُ بثمنٍ بَخْسٍ،

تَكَهْرَبَتِ الأَجْواءُ في البيت، وتعالَتِ الأصواتُ.. حين علم أخي الأكبرُ بالأمر لم يَصْدُرْ عنه أيُّ ردٍّ فِعْلٍ. دخل غرفته وأقفل وراءَه البابَ. شعرتُ حينها بحنق أكبر ولم أتَمَالَكْ أعصابي فوجَّهتُ صفعةً إلى أخي الأصْغر تردَّدَ صداها في المكان، وحاولتْ أمي فَكَّ الاشْتِبَاكَ.. وبينما نحن في عِراكٍ وصُراخٍ وضَجَّتُنا تَصُمُّ الآذانَ، اقْتَحَمَ أبي البيتَ وآثَارُ السُّكْر الطَّافِحِ باديَّةٌ عليه، وبَدَلَ أن يكون الـحَكَم ويفُضَّ العِراكَ، توجَّهَ نحو أمي يُؤَنِّبُها ويُعَنِّفُها مُحَمِّلاً إيَّاها مسؤوليَّةَ فسادِ الأبناء وسوء تربيَّتِهِم، وفي النهاية حَسَمَ الأمرَ باعْترافِه بِبَيْعِ العِقدِ النَّفيس وصاح مُجاهراً بِفِعْلته:

-هذا العِقدُ يا ابْنَتي لا يُناسِبُك، أنا لم أَلِد بَناتاً يَتَزَيَّنَ ّويَتَبَرَّجْنَ بهذا الشكل.. العقدُ بِعْتُه وقامرتُ وسكِرتُ بثمنِه. قُضِيَ الأمْرُ.

شعرتُ كأني طائر بومٍ مشؤُومٍ.. وضاق البيتُ بي.. ولم أعُد أُطِيقُ رؤيةَ أبٍ دائم التأَرْجُح منَ السكْر وأخ يُقَرْقِعُ أنفاس الشِّيشَة اللَّعينة ويُفتِّش شُؤوني الصغيرة باحثاً عن أيِّ شيءٍ ثمينٍ بحوزتي.. وأخ آخر أشْبه ما يكون بالجِدار لا يُحرِّكُ ساكناً ولا يُعْتَمَدُ عليه ولا يُعَوَّلُ عليه. له

عالمُه الخاص ولنا عالمُنا.. أيقظتني هزَّةٌ خفيفةٌ صادرةٌ من هاتفي تُعْلمُني بوصولِ رسالةٍ قصيرةٍ.. رسالةٌ من "عماد" تُخْرجني من سوْداوِيَّتي إلى عالمٍ وردِيٍّ لَكَمْ أتُوقُ إليه.. رسالةٌ تدعوني إلى لِقاءِ حب، ولَكَمْ أحتاج إليه لأُطَهِّرَ هذه الروح وهذا الجسد من الكراهية والحزن..

الساعة تجاوزتِ الخامسة بعد العصْر بقليلٍ.. ها هو أخي المُضجِر يتأَبَّطُ جريدتَهُ ويخرُجُ.

سيقصِدُ حتماً مكانه الأثير تحت العمود في المقهى كعادته..

وستكون هذه آخرَ مرَّةٍ أراه يخرج من البيتِ..

انتهزْتُ فرصة خروجه وانْسَلَلْتُ وراءَهُ في صمتٍ.. اسْتنشقْتُ الهواء خارج البيت وابتعدتُ قليلاً عن سوداويَّتي باحِثةً عن عالمي الوردِيِّ..

وستكونُ هذه آخرَ مرَّةٍ أخرج فيها من البيت.. ولن أعودَ..

عْبِــيقة

-1-

أزقَّةٌ ضيِّقةٌ، غُرفٌ ضيِّقةٌ، دكاكينُ وفنادقُ مُتَرَاصَّةٌ، بائِعُو سَجائر بالتَّقْسيطِ، ماسِحُو أحذيَّةٍ، بائعُو الجرائد، بائعاتُ الهوى، نفاياتٌ في كلِّ مكانٍ وإسفَلْتٌ أسود كوجه المدينة.

ومن أحد بُيُوتاتِ الأزقَّة الضيِّقة، من إحدى الغُرف الضيقة أخرُجُ مُتَسَلِّلاً؛ من ظُلمة غرفةٍ تراكمَت فيها أجسادُ خمسةِ أفرادٍ، أخرجُ إلى عتمة المدينة.. لا تكفي الأضواءُ الباهِتة لأتَلَمَّسَ الطريق عبر الأزقَّة الضيِّقة المُلتوِيَّة؛ الدكاكينُ المُتراصَّةُ تُغلَقُ وأنا أحُثُّ الخُطَا باحثاً عن أعقاب السجائِر.

سأتَّجِهُ إلى ساحة المدينة، فبين أرْجُل المارة، وبين أرْجُل كراسي المقاهي أجِدُ ضالَّتي.. بسبب هذه الهواية السيِّئة تعرَّفتُ على "عبيروش"

سيءِ الذكرِ، ماسحُ الأحذيةِ. وبينما نحن نَمسحُ الأرض، هو يبحث عن أحذيةٍ وأنا أبحثُ عن أعقابِ سجائرَ الْتَقينا.

"عبيروش" سيءُ الذكرِ لا يُدخن، لكنه يقترفُ أشياءَ أسوأَ.. إنه يجمع دُرَيْهِماتٍ قليلةٍ ويغْمِزُ إلَيَّ بمكرٍ مُشِيراً إلى صاحِبة المُؤخِّرة الكبيرة الجالِسَة تحت الشجرة وسط الساحة، إنهَّ يتحَدَّى نفسَه ليجمعَ ما يُرضي به "الشْرِيفَة" لتَقْبلَ مُضاجعتَهُ، قالت له ذات مرَّةٍ وهي ترده خائباً:

"-كُن اسْبَعْ وْكُولْنِي".

ويكونُ لكلامها على نفسيَّته أثرٌ بليغٌ، فتراه يتَنَطَّعُ ويتطاولُ ويَسْتَأْسِدُ في الساحة بشراسةٍ وقد تعَلَّمَ أنَّ الفحْلَ من يُوَلِّدُ الدرهمَ لا مَنْ يُوَلِّدُ المرأةَ، وتراهُ يَـمْضي كالذبابة من زبالةٍ إلى زبالةٍ، ومن مقهى إلى مقهى، ومن طاولةٍ إلى طاولةٍ، ومن كرسيٍّ إلى كرسيٍّ، وغايتُه أن يُرْضِيَ اللَّبْوءَةَ فلا تفارق مؤخِّرتُها مُخيِّلته، وكل حذاءٍ يوضعُ على الحَدْوَةِ الخشبيَّة أمامه يتخيَّلُه مؤخِّرَتَها، فيُمَسِّدُ عليه بِرقَّةٍ ويُمَرِّرُ مِمْسحتَهُ، ويتلذَّذُ وهو يُرَبْرِبُ عليه. يُلمِّعُ الحذاء ويُطيلُ النظرَ إليه على أنَّه مؤخِّرة مُكْتنزَة. يفُكُّ خُيوط الحذاء وكأنه يُعرِّي المؤخِّرةَ، يُركِّزُ على كلِّ الثنَايَا، ويمسح

بمِمْسحته وبعَينيه فيبدو مُهتمًّا وعاشقاً ومُتْقِناً لعمله، كانتْ طريقتُه هذه تنفعُه ليحصل على دَراهمَ أكثرَ وليَكْسِبَ عطفَ زبائنِه.

"عبيروش" سيءُ الذكْر يفعلُ أشياءَ أفظعَ، إذْ هو لا يتَوَرَّعُ عن مضاجعة أي غلامٍ مُتشرِّد، وقد راودَني في أولِ الأمر. أذكرُ أنه أهداني سيجارةً شقراءَ كاملةً، وفتح صندوقَه العجيبَ وأشار إلى ما أسْماهُ "زْوِيبْعَة" وهي كيسٌ بْلاسْتيكِية بيضاءَ مليئة بـ"مَاحْيَا" ثم أشار إلى حِجْرِهِ فلا معنى في عُرْفِهِ لشُرْبِ ماء الحياة دون مُمارسة الجنس. "عبيروش" سيءُ الذكرِ ينام أحياناً في الشارع وأحياناً أخرى في أحضان مُومِسٍ مُتَّسِخَةٍ وأحياناً أخرى في محطة المدينة وحين تبْتسِم في وجهِه الحياةُ يسمح له صاحب فندقٍ صغيرٍ بالمبيتِ عند بابه المفتوح طوالَ اللَّيلِ.

وأمضي مع الأيام أمارس هوايتي السيئة، أقوم بجولة تَفَقُّدِيةٍ أُولى لأعْرف نوعِيَّةَ رُوَّاد المقاهي، فنوعيَّةُ زبائن المقاهي تُحَدِّدُ نوعيةَ أعقابِ السجائر: عُمَّالٌ، بنَّاؤُون، حِرفِيُّون، عاطلُون، مُوظَّفُون، سَماسِرة، مُتقاعِدون، تُجَّار، فلاَّحُون، مُدرِّسُون،.. وكلُّ واحدٍ يُضفي على مجْلسه

مُسحةً خاصة ويُلوِّنُ المكانَ بلونِهِ الخاص إلا هذا الرجلُ الجالسُ أبداً أمام العمود فلا معنى لوجوده ولا معنى لعدمِ وجودِه.

وأمضي باحثاً عن السيَّاح بين كراسي المقاهي.. ومعروفٌ أن نوعَّيَةَ السياح تحدِّدُ نوعيَّةَ أعقابِ السجائر، العِقْبُ الواحدُ منها يُساوي أحياناً علبَةَ "طَابَانْوَار"، أو أن العِقبَ الواحدَ يساوي عُلبةَ "طَابَاجُون" أو يزيدُ، من المُهم أنْ أُقَرْفِصَ أسفل طاولةٍ يجلس إليها سيَّاحٌ أجانبٌ، وحين كان الواحدُ منهُم يُكْرِمُني بسيجارةٍ كاملةٍ كنت أبيعها وأشتري طعاماً وشراباً وسجائرَ رخيصة وقد أحتفظ بالباقي.

الليلةَ كنتُ أعرفُ أن السياح قلَّةٌ، فقد جرتِ العادة أن تُنْزِلَ الحافلة السياحية أعدادًا كثيرةً في الساحة صباحاً، وقت الضحى ومساءً بعد العصر، أما حين يتقدَّم الليلُ فنادراً ما يظهَرون، ولا تَسوقُ الأقدار إلى المقاهي إلا بعضَ نُزَلَاءِ الفنادق الرخيصة المُحِيطة بالساحة. والليلة وكما توقَعْتُ تبدو الساحةُ كئيبةً والحركة قليلة ولا أثر لِـ"عبيروش" سيء الذكر. أجلسُ تحت الشجرة أمُصُّ عِقباً تِلوَ الآخَرَ، أَنْتَشِي بالثُمالاَتِ، لقد أصبحتُ أُفضِّلُ الأعْقاب على السجائرِ الكاملة. إن كل

عِقْبٍ ثُمَالَةٌ. والثُمَالةُ ألذُّ ما في الكأس. لهذا يزداد حماسي لجمع ثُمَالاَتٍ كثيرةٍ. وكلما جَنَّ الليل جَنَّتْ روحي.

وشيئاً فشيئاً تتحول الساحة في عينَيَّ إلى مَرقَصٍ كبيرٍ وتتغير الصور في الساعات مرَّاتٍ.. في الدقيقةِ مراتٍ.. في الثوانِي مراتٍ.. وتزدَحِم الصور والأصوات وأُعَرْبِدُ مُنْتَشِيّاً وأرى عبيروش سيءَ الذِّكر راكعاً عند قدمَي عجوزٍ أجنبِيٍّ. عجوزٌ مُكْتَنَزُ الأطْراف، تبدو علامات الروَاءِ على وجهه المُورَّدِ، وعلامات الوقار على شُعيْراتِ رأسه البيضاء الملْسَاء. يُزيِّنُ أُذُنَه اليُسرى بِقُرطٍ ذهبِيَّةٍ، ويلبَسُ قميصاً أخضرَ شَجَرِيَّ الأشْكالِ، ومِئْزَراً صيْفِيّاً ضيِّقاً لا يتعدَّى الركْبتين.

غمز "عبيروش" بعينِه حين اقتربْتُ يدفعني فضولٌ لِمعرفةِ ما إذا كان الأجنِبيُّ يدخِّن أم لا!؟ ولما سألْتُ "عبيروش" عاتَبَنِي بسُخرية لاذِعةٍ ومضى يُعدِّدُ لي محاسِنَ الرجل، مُركِّزاً على لحْمِه الأبيض، وعلى القُرطِ الذهِبي في أذُنه، ولما تَيَقَّنَ مِنْ بلاهتِي قال لي بوقاحةٍ:

- الكَاوْرِي كَيْتْكَالْ

واستمرَّ يُمرِّر مِمْسحتَه على الحذاء بِشَبَقِيَّةٍ وهو يدعُوني أن أتَخَيَّل المُؤخرةَ حذاءً والحذاءَ مؤخِّرةً. نعم هي مؤخِّرةٌ نَتِنَةٌ، لكنها على رأي

"عبيروش" الحقير لذيذةٌ. استَمَرَّ يُلَمِّعُ حذاء الأجنبي ومِن حينٍ لآخرَ يرْمُقُه بتلَذُّذٍ والعجوز يبتسم. هل يمكن أن يكون هذا العجوز الوقُور لِواطِيّاً يُفْعَلُ به فِعْلُ الخَنَا؟! وكأنَّ "عبيروش" قرأ أفكاري ولكي يتحدَّى وعيِي الضحْلَ وعدم تقديري للْموقف مضى يُطَبْطِبُ على حذاء العجوز، ثم ساقِه العارية، مُتَنَقِّلاً في وقاحةٍ وصفاقةٍ إلى فخِذَيْهِ دون أن يَعْترضَ العجوز الذي ابْتسم بل وضحِك بانْشِراحٍ حتى ظهر طَقْمُ أسنانه الصناعِي. وتأَكَّدَ لي بها لا يدعُ مجالاً للشك أن "عبيروش" مُحِقٌّ في تقديره للْموقِف.. صمتٌ مُهينٌ أحْسَسْتُ به فَلُذْتُ بالتفكير في عِقْب سيجارةٍ أُخْفِي بِه تَوَتُّري. أما "عبيروش" فقد كان يُفكِّر أبْعد من عِقب سيجارة.

رمى العجوز عِقب السيجارة الَّتي أشْعلَها قبل لحظاتٍ لأَلْتَقِطَها بلهْفةٍ قبل أن تَنْطَفِئَ جَذْوَتُها. تأَهَّبَ العجوز للانْصِراف وقبل أن يغادر المقهى دَسَّ يدَه في جيْبِه وأخرج ورقَةً نقدِيَّةً وخَطَّ عليها شيْئاً ما وسلَّمها لِـ"عبيروش" وانصرف.

-2-

الورقة النقدية التي اسْتَلَمْتُها من السائح الأجنبي مكتوبٌ عليها شيءٌ ما. ولا أدري مَنْ يَفُكُّ لي هذه الرمُوز؟؟ "عْبِيقة" الطفل الُمدللُ المطرود من المدرسة والَّذي كُنتُ أعتبِرُه الُمتَعَلِّم الذي أتفاخَرُ بمُصاحبتِهِ لم يَفْقَهْ شيئاً من هذه الأحرُف. قال لي إنها حروفٌ فرنسيَّةٌ وقال لي إن هناك أرقاماً.. إنها الأرقامُ التَّي أرَّقَنِي التفكير فيها.. أهِي أرقامُ الدراهِمَ التي.. أم أرقامٌ لِحَلٍّ سحريٍّ يُخرجُني من هذه الحفرة إلى ما خلف البِحار الَّتي.. .

ها أنا في الساحة التي.. . رقمٌ من أرقام المدينة التي.. أمسح الأحذِيَّةَ.. وأتَجَوّلُ بين المقاهي الَّتي.. أتوقَّفُ عند الطاولة التي يجلس إليها "عماد".. شابٌّ يكتب ويقرأُ كثيراً.. أمسح حذاءَهُ وهو يقرأ الورقَةَ التِّي.. و"عْبِيقَة" يجمع الأعقاب التي.. ويَسْمع كلماتِ "عماد".. العنوان: الحيُّ.. العمارةُ الَّتي.. .. .الشقَّة التي.. .. .".

"عْبيقَة" تعالَ أيها الغبِي نقضي ليلةً بين الوسائدِ الحريرِية والستائر الِمْخْمَلِيَّةِ، نشرب خمراً مُعتَّقَةً في الزجاجات التي.. ونأكل أصْنافاً من المأْكُولات التي.. وندخِّن السجائرَ التي.. نَعيشُ حياةً كالَّتي..

"عْبيقَة".. اسْمَعْني ولو لِمَرَّةٍ واحدةٍ، لقد ظَنَنْتَ بي الظُنُون واعتبَرتَني امْرأً سوءٍ. نعم. أنا أحبُّ المؤخِّرات الفَتِيَّة المُرَبْرَبَةِ المُكتنزَة. أجوعُ إلى الجنس ولكنَّني أصوم ولا أُفطر على بصلَة. أجوع ولا آكل جِيفَة. أتظُنُّ أنني أطْمع في مؤخِّرة هذا العجوز النـتِنَة..

اسْمَعْني جيداً أيها الساذجُ الغِرُّ.. أنا مثلُك أقْرَفُ وأقِيءُ وأبصِقُ لِمُجرد التفكير في هذا الشاذِّ اللِّوَاطِي.. ولِي رغبةٌ شديدةٌ أن أتبوَّل في فمه. اسْمَعْ "عبِيقَة". هذا المَلْعُون محظُوظٌ، ميْسُورٌ، سهَّلَ الله عليه، يعيش في رَغَدٍ مِنَ الحياة ونحن في مشقَّةٍ، يتمتَّعُ بمالِه وحياتِه وجسدِه، ونحن نتَعَذَّب في حياتِنا وواقِعِنا وأجسادِنا.. تعال. نحن لا نأكُل الجيفَ.. فقط تعالَ معي لِنَلُفَّ حول صديقِنا الأجنِبي، أليس أفضلَ من أنْ نَلُفَّ ونلُفَّ حول مقاهي وكراسي الساحة؟؟ ألا تُريدُ أن تَشتَري الملابس الَّتي.. وتجلس في المقاهي التَّي.. وتنام في الأسِرَّةِ التي.. وتنال القُبل التي.. وتَتَمَتَّعَ بالمسابح التي.. والسيارات التي.. وتُسافِرَ في الطائرات التَّي..

العجوز يريد أن يُشْفِيَ غَلِيلَ غِلْمَتِه وأنا غُلامٌ يافعٌ، سأسْحقُه كما يُسحقُ عِقب السيجارةِ، سأفْعَصُه بين الوسائد التَّي.. ماذا يريد الوَسِخُ؟! يُريدُ أن يَتَسَلَّى بأجسادِنا؟ لاحِظْ أنه أنظَفُ منا حِين يطلُب منَّا

أن نأخُذ "دُشّاً" في حوض حَمَّامِه المُعَطَّرِ.. وما أبْشعَ هَيئَتَنَا قبل الاسْتحمَام لكن قلوبنا طاهرةٌ وعلى خِلافه فهو نظيفُ الجسدِ أسودُ الرُّوح، تَتبَدَّى وساختُه في بشاعةِ مؤخِّرته العاريَّة المُتَرَهِّلَة وهو يَذْرعُ الشُّقَّةَ جيئةً وذهاباً. ولاحِظْ يا "عْبِيقَة" أنه كثيرُ التأدُّب، لطيفٌ للْغاية وهو يُوفِّرُ لنا شروط الحياة الجميلة.. ثلاجةٌ مُكْتَظَّةٌ بأنواعِ الياغُورْت والجُبنَة والجُعَّة.. سجائرُ فاخرة على المِنْضَدَةِ، عطورٌ راقيَّةٌ قرب المرآة..

راقِبْه يا "عْبيقَة" وهو يضع الساعة الثمينة والمفاتِيح والمحْفظة المُنْتَفِخة والهاتف المحمول وطَقْم أسنانِه الصناعي.. لا تَنْسَ ذلك العِقْد النَّفيسَ المُعلَّق على الحائط.. سأَشْغَلُهُ عن نفسِه.. سأُعَصِّبُ عينيه وأفْسَحُ لكَ المجال لِتَفْتِيشِ الدولابِ والأدْراج.. سأضع أصابِع قدمِي في مُؤخِّرته.. أُقَيِّدُهُ كما يحلُو له.. لا تُضيِّعِ الوقت.. خُذْ كلَّ شيءٍ حتى جواز السفر.. يجب أنْ نتْرُكَ الحقيرَ على الحديدَة. سأضْربُه بالسيَّاطِ على مُؤخِّرتِه.. إنه يحبُّ ذلك.. إنه يتلذَّذُ بشكل عجيبٍ ومُثيرٍ.. أُهْرُبْ يا "عْبِيقَة".. طِرْ.. اخْتفِ.. سألْحَقُ بك إلى المكان المعْلومِ بعد أن أُدْمي مؤخِّرةَ هذا الشاذ المأْفُون.

– 3 –

تأكُل طفولتَهُما هذه الأزقةُ القذرةُ..

"عْبيقة" الذي يخْرُجُ مثل جرْدٍ مُتسخ، هارب من أبٍ سكِّير يلْكُمُ أُمَّهُ البئيسَة كلَّما أطلقتْ لسانها السليط. أخْتُه المطلَّقة تحْترف البغَاءَ. أخوه الأكبُر يجر عربةَ رِزْقه تُطاردُه السُلُطَات المحليَّة من ساحةٍ إلى ساحةٍ، ومن زُقاقٍ إلى زُقاقٍ.. زوجة الجار تَخُون زوجها في أوكار العُزَّاب المُوْبُوءَة. الخالُ المُلْتَحِي يبيعُ السِواكَ والجلابيب أمام مسجدِ الرحمة، زوجتُهُ المُنَقَّبَة تُمارسُ السَّمْسَرة في أجساد طِفلات صغِيرات لم يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ ولا جانٌ تحت غطاء اسْتِئْجار الخادِمات.. صاحب الإيجَار يجْمعُ غنائِمَه من الغرف الضيِّقة التي تَسْكُنها خادماتٌ وعاملاتُ الضيْعاتِ وبائعاتُ الهَوى وعمالُ أوْراشِ البِنَاءِ. جارتهُمُ العجوز الحَيْزَبُونُ تمُارس هوايةَ الْبَصْبَصَة وتُقدِّم تقاريرَ مُفصَّلة لصاحب الإيجار عن الداخِل والخارج، وهو قد يتغاضى عن كلِّ شيءٍ إذا كان هناك مُقابلٌ، ويَقْبَلُ مبُرِّرَاتِ اللوَاتي تَعْمَلْنَ ويسيلُ عرقُ أجْسادِهِنَّ، ولكنَّه لا يَقْبَلُ بأيِّ حالٍ من الأحوال مُبَرِّرَات السكارى الواهيَّة، لذلك كان يتوقَّفُ طويلاً أمام

أبواب الآباءِ الَّذين يُتَعْتِعُهُم السُكْرُ وهم في تزايُدٍ.. ويتوَعَّدُ ويُهدِّدُ ويُرْهِبُ ويتَطَاوَلُ..

وغير بعيدٍ من البيت الذي يَسْكُنه "عْبِيقَة" يقع مسجد الرحمة وبِجانِبه منزل الحاج "مبروك"، يَعُودُ كلَّ مساءٍ بعد صلاة العِشاء وفي يديه كِيسان: كيسُ موزٍ، وكيسُ تفاحٍ. ينام باكرا ويستَيقظ باكراً ليُصلي صلاة الفجر. يَخْرج في الوقت الذي يَعُود فيه "عْبِيقَة" إلى الحارة. يتهَلَّلُ وجه الحاج حين يرى الطفلَ يدخلُ المْيْضَأَةَ. يتوضّأُ "عْبِيقَة" مُنْتَشِيّاً ببُرودة الماء ويُسارِع إلى المسجد حيثُ ينعم برحابَة المكان ويَغْفُو على الزرابي الوثِيرة لحظةً من الزمن، لكنَّهم يطردُونَه بعد الصلاة. وتُغْلَقُ أبوابُ المسجد ويُحسُّ أن الشارع بيتُ الله الفسيح.

الساحة ملاذُهُ وهي بيتُ الله، إليها تأوِي القِطط والكلاب الشارِدَة وعلى أشجارها تَحُطُّ طيورُ الصباح. هو لا يَسْتطيع أن يأْوِي مبكِّرا إلى الغُرفة التي تَنْحَشِر فيها الأَجْسادُ الخمسة. لا بُدَّ أن يَنْتظِر إلى أن يَستيقِظ العالم.. إلى أنْ يَحْظى بِحَيِّزٍ له في الزنزانة التَّي تُسمَّى غرفة.. يسير شاردا مُطأطأ الرأس بين الشوارع التي بدأتْ تستَيْقِظ، يَعْبُرُ الطريق غير آبِهٍ بالسيارات التي تَمُرُّ كالْبَرق.. يصفَعُه هواءُ السيارات لكنه

يُواصِل المشي عساه يَنْعَمُ بِنومَةٍ هَنِيَّةٍ أَبَدِيَّةٍ في قبرِ خمسِ نجومٍ حيث لن تُزاحِمَه الأجسادُ الخمسة.

تأكُل طفولتَهُما هذه المدينةُ.

"عبيروش" الذي يَتَسَكَّعُ بين المقاهي والأزقَّةِ، تَنَقَّلَ بين مجموعةٍ من المناصبَ السامِيَّة. ذاتَ زمنٍ كان حَمَّالاً يجُر "كَرُّوصَة" صغيرة، يلهث طوال اليوم وراءَ الرزق، ثم عَمِلَ بائعَ أكياسَ "بْلاسْتِيك" في الأسواق، وبائعَ قِنِّيناتِ ماءٍ في المحطَّة، وبائعَ سجائرَ بالتَّقْسيطِ في الساحة، واشْتغَل في الضيْعَات الفلاحية الكُبرى وصَبِيّاً عند حلاقٍ وفي ورشةِ نجَّار وفي جمْع الخُبز الجافِّ ونبَّاشاً في المزبلة.. وانْتهى بِهِ المطافُ ماسحَ أحذيَةٍ. متى ظهر في الساحة؟ ابْنُ مَنْ؟ ومِنْ أيْنَ أتَى؟ لا أحدَ يسألُ مثلَ هذه الأسئلة في المدينة التي تأكُل أولادَها؟

دراجاتٌ تروح وتجيء، عرباتٌ تروح وتجئُ، سياراتٌ تروحُ وتجئ، أحذيَّة مُغْبرَّةٌ تَخِبُّ في الأرض وأخرى صقِيلَةٌ تروح وتجِئ. كؤوسٌ تُمْلأُ وتُفْرغُ. سجائرُ تُشْعَلُ وتُطْفَأُ. هواتفُ تُفْتَحُ وتُغْلَقُ. صفقاتٌ تُعْقَدُ وتُفْسَخُ، والساحة بارٌّ كبير، رُوَّادُه يحتفِلُون باللحظة. ثرثرةٌ كثيرةٌ وأوهامٌ كبيرةٌ، وانشغالٌ بالفراغ وحُضورٌ في الغيَّاب.. وفي

غفلةٍ مِن هذه الغَمْرَةِ يذوب "عبيروش" تحْت الأحذِية. لا يعْرف أحداً، ولا أحدَ يعرفُه. ورغم الحرمان يُمارس مباهِجه الصغيرة: يُعاكِس الفتيات، يَسْتَأْسِدُ ويُراود لَبُوءته ويَحْظى من حينٍ لآخرَ بليْلةٍ دافئة بين أفْخاذها. يدخِّن الحشيش. يشرب "المْاَحْيَا". يُقامر. يُرْشِد السياحَ الأجانب. يُغافِل النادلَ ويشْرب ما تبقَّى من عصير أو حليبٍ بالشُوكُولاطا تُرِكَ على طاوِلةٍ شاغرة. يغْفُو تحت ظل الشجرة. يَسْتمع إلى حَكوَاتي الساحة. يقف مسمَّراً أمام صاحب الوصفات الجنْسيَّة. يُشاهدُ مباريَات كرة القدم وهو يَحُوم بين كراسي المتفرِّجين في المقاهي. ورغم القهْرِ والحرمان "عْبيرُّوش" يعيشُ. لا أهلَ ولا وطنَ ولا نديمَ ولا كأسَ ولا سكنَ ولا أبَ ولا أمَّ ولا أخَ ولا صديقَ.. ورغم الأسى يعيشُ ويَعرفُ كيف يَسْتَوْلِد الدرهَمَ الأبيض من بين أنْياب اليوم الأسْود.

-4-

أكثرُ ما في المدينة بعدَ الدرَّاجات أطفالُها. الأطفال في كلِّ مكانٍ، في الأزِقَّة، في الساحات، في مَحَلَّات الألعاب والتسلِيَّة، في المدارس، في الأسواق، في المسْتشْفَيات، في السوَاقِي، في المزابِل، في الحدائِقِ، في المساجِد، في الكتَاتِيب، في كلِّ مكانٍ.

وهذه المدينة بدون أطفالِها صورةٌ بلا صوتٍ، لوحةٌ بلا ألوانٍ، قلبٌ بلا نبضٍ، وجهٌ بلا دماءٍ، يدٌ بلا أصابعَ، جسدٌ بلا روحٍ..

اعتادَتِ المدينة أطْفالَهَا واعْتاد الأطفالُ مدينتَهُم، وفي غفْلةٍ من الكبار كان هناك عالم صغيرٌ يَتَنَاسلُ داخل المدينة، عالم الصغارِ الطيِّبِين، يغْزُون حقُول البُرتُقال والزيتُون والذُرَّة كالجراد، يتَسَلَّلُون إلى قاعة سينِما خفْيَةً لمشاهدة الأفلام الإبَاحيَّة، يطاردون السياح الأجانب. يمْلأُون الزوايا والمواسِمَ. يتَصَيَّدون ولائِمَ المعروفِ أو الصدَقَة.

المدينة جميلةٌ بأسوارِها وأسواقِها وسواقِيها وحدائقِها وأزقَّتِها، لكنْ لا أحد انتبه إلى أنَّها جميلةٌ بأطفالِها. وحدهُ هذا المصوِّر يلتقِط صورَ أطفالِها بِولعٍ شديدٍ ويمنحُهُم قطعةً نقديَّة كبيرةً مُقابل ذلك، ويقوم بجولة معهُم على متْنِ العربَة التي تجُرُّها جِيادٌ مُنْهَكَة أو يُرافِقُهم على

دراجة هوائية، هو كهْلٌ يقترب من العِقْد الخامِسِ ويدَّعِي أنه صديقُ الأطفال يَفْهَمُهُم ويُحِبُّهم ويُصَاحبُهم ويُشْبِعُهم هدايا ويُشْبِع جُوع بُطُونهم، ويَرْوي عطشَ فُضُولِهم، ويسافِرُ معهُم وربما ينام معهم على سريرٍ واحدٍ أويُضاجِعُهُم.

مدينة أطفالُها كُثُرٌ.. مدينة لديها فائضٌ من الطفولة. أطفالٌ يُتَحَرَّشُ بهِم في الحمَّامات، أمام المدارس، خلف الأطْلال، في غابات الزيْتون، بين الحُقول، في الوادي المُهجور، في الأزقة والحارات..

يتوافد غُرباءَ كثِيرون ويتحوَّل أسْوِيَّاءٌ إلى شَوَاذَّ، وفي غفلةٍ من الكبار، كان هُناك عالم سِرِّي صغيرٌ يَتَنَاسَلُ داخل المدينة، ويتجَرَّأُ الشواذ جِنسيّاً ويقْطُنون في الحارات لِيُشْفُوا غَلِيل ملَذَّاتِهم قريبا من الطفولة المُشْتَهَاة.. ويفْتَحُون نوافذَهُم كلَّ صباحٍ على إيقاع الحياة وعلى ضجِيج وصخَبِ الأطفال، تتحَوَّل الحاراتُ تدريجيّاً إلى بُوردِيلات صغيرةٍ.. يُوارِب الوافدون الجُدُد الأبواب، ويَنْصِبون الكمائِنَ وتُذْبحُ البراءةُ على إسْفَلْت المدينة مرَّةً ومَرَّةً ومَرَّاتٍ، ويعِيثُ السمَاسِرَةُ فساداً.. ويشِيخُ الطفْلُ في سِنِّ العاشِرة، في سن التاسعة، في سنِّ السابعة، في سنِّ الخامسة.. وفي صمْتٍ رهيبٍ وتواطُؤ مُخْجل تأكُل المدينة أطفالهَا.. لكنَّ

الأطفال كثيرون، تَسِيح المدينة بهم كمجْرى يفيض، فطفولةٌ تُغْتَصَبُ وأخرى تُسْرَقُ وأخرى تُعَذَّبُ وأخرى تُحْرمُ وأخرى تُجَوَّع وأخرى تُقْتَلُ.. وتستمر الحياة ومورد الوجنتين يُصور وآخر يسْكرُ وآخر يدخِّن الغِلْيون وآخر يَتبَضَّعُ.. توفِّر لهم المدينة شُرُفاتٍ مُشْمِسَة وغرفاً مُكَيَّفة وأسِرَّة وثِيرة وخمْرة مُعتَّقة وغِلماناً مُوَرَّدَةٌ وَجَناتُهُم.. ويعْرف الأطفالُ الأماكن إيَّاها والأشخاصَ إيَّاهُم، ويتعرَّفون على القادِمين الجُدُد وعلى أسْمائِهِم الرنَّانة.. الجيرانُ يعرفُون.. وفقيهُ المسجدِ يعرفُ.. وشباب المدينة يعرفُ.. والنساء يَعْرِفْنَ.. والمقَدَّمُ يعرفُ.. والشرطة تعرفُ.. لكن الأطفال في هذه المدينة بعدَدِ الأرْزِ، بعددِ النجُوم يُقَدِّمُون لِزُوَّار المدينة قرابِين ليتعَوَّدُوا على زيَّارتها، تشجِيعاً للسيَّاحة فيها وراحةُ الزبُون فوق كلِّ اعتبارٍ.

***

ولأجل راحتِهِم وطمأنينتِهِم تتحرك سيارات الشرطة هذه اللَّيلة بشكل مُكثَّفٍ حمايةً للسائحِ العجوز الذي ذَكَرَ في محضر الشرطة أنه أشْفقَ على طِفلَيْن مشرَّدين، أطعمَهُما، آوَاهُما. أنعَم عليهِما بِـ"دُشٍّ" ساخن. عطَّرهُما. أشبع جوعَهُما. روى عطَشَهُما. أحسن إليْهِمَا واحْتَالَا

عليه وسلَبَاه محْفظةَ نقُودِه وهاتفَه وساعتَه وجوازَ سفرِه وأوراقَ هوِيَّتِه وبطاقَتَه البنْكِية وطَقْمَ أسْنانه وعِقدا نَفِيساً..

الضحية العجوز لن يتَمالكَ أعصابَه سيَدُقُّ أبواب أرْفَعِ المسؤُولين وسيَتَّصل بسفارةِ بلادِه، وسيَرْفُض الإجابَة في التحْقيقِ عن الأسئلة الخُصوصِيَّة.. حياتُه الخاصة شأنٌ مقدَّسٌ، علاقاتُه بالأطفال، مُيُولاتُه الجنسيَّة خطٌّ أحمر، وسيرْفُض الإجابَةَ وسيُطالِب بحُضور محاميه.. سيُشْعل سجائرَ كثيرة وهو ينتَظر مِن مسؤُولي الأمن في المدينة أن يقُوموا بواجِبِهم وأن يحُلُّوا الإشكال بِمَعْرِفتهم. كم طفلٌ في المدينة بالأوْصاف التي قدَّم لهم؟! إنها مدينةٌ في مساحة حيٍّ من أحياء المدينة التي جاء منها!! كيف يَجْهلون مأْوى هذِهِ الجِرْذان الصغيرة؟!!

تتحرَّك سيارات الشرطة بتعليماتٍ عُليا وتَشْهد المدينة حركةً مكثَّفة.. مدينة أطفالُها بعددِ نجومِ سمائِها، تُعْرَضُ أمام العجوز صوَرُهُم، وكلما جاءت دوريَّةٌ تحمل المتشرِّدين والمُتسكِّعِين الذين وُجِدُوا في الأزقة والشوارع وصالات اللَّهو يَعْرِضُونَهُم أمامه واحداً تِلْوَ الآخر..

مدينة يَتَفَرَّسُ وجوهَ أطفالِها عجوز وفي نظراته اتِّهامٌ لبراءَتِها ووَدَاعَتِها وحُرُماتها. يتصفَّح كتابَ الوجوه ويقرَأُ في كل وجهٍ إدانَة لنَزَوَاتِه الشاذَّة.. وفجأة يتوقَّف عند وجهٍ ويشيرُ بسبَّابةِ الاتِّهامِ وكلُّ الأصابع الأخرى تتجِه نحوه.. وجه العجوز الصفِيحِي بعينيه الجاحِظتين تُطاردان وجه "عْبيرُّوش" وهو يُحاول عبَثًا إخفاء ملامِحِه ونظراتِه إلى الأرض.. "عْبيرُّوش" في المصيدة يواجِهُهُ المحقِّقُون بتُهم شنِيعة.. يَعْترِف بأنه مُحْتالٌ وسارقٌ وسكِّير وحشَّاش وزِنْدِيق زنِيم وينْفِي بشدَّة أيَّ اسْتغْلالٍ جنسِي.. السجن أهْونُ من العار. ويصمُت طويلا.. الصمت أهْونُ من العار.. ولا مُحامي يَنوبُ عن "عْبيرُّوش".. المصيدة تضِيق بِهِ أكثرَ.. ماذا يريدُ منه العجوز الشاذُّ بعد أن سلَبَهُ شرفَهُ ولطَّخَ وجهَهُ في التراب حتى أضْحى يخْجلُ من نفسِه.

العجوز ينتظر اسْتِعادة أوْراقِه وساعته وهاتِفه وبطاقَته البنكيَّة ومحْفظَته وطقْم أسنانِه والعِقد و"عْبيرّوش" ينتظرُ مصيرَه وبينهما رجلُ أمنٍ ماكِر، كان يُترْجِم الكلام بينهُما مقلوباً ويتسلَّى بترجمةٍ غيرِ أمِينةٍ. يُخْبرُ "عْبيرُّوش" بأنَّ العجوز يطالبه بإعادة ممْتلكاته. ويخْبر العجوز الأجنِبي بأن "عبيروش" يُطالبه بإعادة كرامتِه.. ويسْترْسِل رجلُ الأمن مُحدِّثاً

العجوز عن معنى الفضيحة وخاصَّة في المدينة الصغيرة، ولأيِّ سببٍ؟؟!! بسبب أطفالٍ مشَرَّدين. إنَّ السلطاتِ تتغاضَى، تُغْمِضُ عيناً وتفْتَح عيناً، ومُنتهَى مُبْتَغَاها ألاَّ تحْدُث شوْشَرةٌ تُؤلِّبُ الرأيَ العام، أمْ تحْسبُ أيها العجوز المُتصابي أن المدينة على بساطتها وصِغَرها ليس لها رأي؟! ثم يلْتَفِت الضابط إلى "عْبِيرُّوش" ويُنبِّهُه ويُنَوِّرُه، فالعجوز الذي يواجهه شخصيَّة نافذةٌ ووراءَه دولةٌ مؤسَّسات ومنظماتٌ حقوقية، وهو على استعداد لأن يَسْتَقْدِمَ محاميا على متن طائرة وسفارتُه ستُقيم الدنيا وتُقْعِدُها وهواتف المسؤولين على مُستوياتٍ رفيعةٍ لن تَتَوَقَّفَ الليلةَ. أتظُن أن ضياع جوازِ سفرٍ مثل ضياعِ طفلِ ابن مَهْبُولة في هذه المدينة؟! قلْ لي أين ما نَهَبْتُم؟ سنضع المسْروقَ في شُقَّته ونُسوِّي الأمر بِمَعْرفتنا ونُغلقُ الملفَّ. ما رأيك؟؟ هكذا يَسْألُ الضابط الماكر مُقْحِماً اقتِراحاتِه وآراءَه ضمن التَّرجمة المُسْتَبَاحة.

وفي انتظار أن يُشَرِّفَ "عْبِيقَة" يطُول الانتظار ويَسْرح خيال "عْبِيرُّوش" بعيداً. لقد فَكَّر وخطَّطَ ونَفَّذَ، لكنه وقع في المصيدة ولم يُقَدِّر هذا الاسْتِنْفار الأمني غيرَ المسْبُوق لأجل بعض المسْروقات. لقد سَبقَ وأنْتَشَل محْفظاتٍ كثيرة وسَطَا على دراجاتٍ وهواتفَ نقَّالة وساعاتٍ

وأشياء ثمينة دون أن تُعِيرَ الجهاتُ الأمنية الأمر أدنى اهتمامٍ، كيف قَلَبُوا له ظَهْرَ الْمِجَنِّ واسْتفاقُوا من سبُاتِهِم فجأة!! "عْبِيقَة" الذي كان يَظُنُّه ساذجاً لم يظهر له أثرٌ، لم يجده في المكان المعلوم!! أين اخْتفى؟؟ لا يمكن أن يخُون عِشْرَتَهُما المعْجُونة بأعْقاب السجائر وصَقِيع الإسْفَلْت.. لِتُقْطَع ذِراعي إنْ لم يكُن خلفَ اختفاءِ "عْبيقَة" أمرٌ جللٌ..

ضابط الأمن يَنْتظِر..

السائح الأجنبي يَنْتَظِر..

"عْبِيرُّوش" يَنْتَظِر..

ويطول الانتظار.. ولا أثرَ لعْبِيقَة، وتَدْلَهِم الليالي، وفي الليلة الظلماءُ تُفْتَقَدُ النجوم.. ويستمر البحث..

البحث عن الساعة الفاخرة..

البحث عن الهاتف المحَمُول..

البحث عن البطاقة البنْكِيَّة..

البحث عن جوازِ السفرِ الأجنبي..

البحث عن محْفظة النقُود..

البحث عن العِقْد النَّفِيس..

لاحقاً وُجِدَتِ الساعة عند موظف في البلدية، قال إنَّه اشْتراها من بائع مُتجوِّل، وَوُجِد الهاتف النقَّال عند بائِع هواتف مُستعْملة اعْترفَ انه اشْتراه من عاهرة معروفَة والعاهرةُ قالت أنه كان هديَّةً من أحدِ زبائِنها. وعُثِرَ على البطاقة البنكية في شُبَّاك وكالة إحدى الأبْناك بعد أن حاول مُسْتَعْمِلُها توظِيفها بشكلِ خاطِئ..

وبعدَ أكثرَ من شهر قُدِّمَتْ شكاياتٌ لأُناسٍ نُصِبَ عليهم بأوراقَ مُجْتَزَأَة من جواز سفرٍ أجنبي اشْترَوْها من رجُل ادَّعى أنه موظَّف بخطوط الطيران وأنها تَذَاكِرُ سفر بالطائرة إلى بلدٍ أجنِبي.

وأُلقِي القبضُ على "بَارمَان" بِسبب حِيَّازته للعِقد المسروقِ، قال أن أحدَ السُكارى من رُوَّاد الحانةِ باعَهُ إيَّاه، ولما اسْتُنْطِقَ السكِّير اعْترَفَ أنه أخذَهُ من بين أمْتِعة ابنَتِه، وقد عُرف فيما بعد أن أخَاها أودَعَ عندها العِقد لتحافظ عليه.. وأين هي ابنتُه؟ اختَفَتْ. وأين هو أخُوها؟ مَاتَ.

وفي غمرةِ البحث عن مُتَعَلِّقَاتِ الأجنبي اخْتفَت نجُومٌ كثيرةٌ من سماء المدينة وقُدِّمَت بلاغَاتٌ متعدِّدة بخُصوص اختِفاء أطفال.. هروب فتياتٍ.. سرقات.. حالات تحَرُّشٍ واغتصابٍ..

وشيئاً فشيئاً تفْقِد المدينة طفُولتها.. وتتحوَّل المدارسُ إلى إصْلاحيَّات وسجُون صغيرة، وتتحوَّل صالاتُ اللَّهو إلى صالاتٍ لبيعِ المخدِّرات وتَجِفُّ السوَاقِي وتخْلو من الأطفال وهم يَتَرَاشَقُون بالماء.. وشيئاً فشيئا تَفقِد المدينة طفولتَهَا وفي الليْلة الظلماء تَفْتَقِد السماءُ نُجُومَها.. وتَفْتَقِد المدينةُ أطفَالَهَا.

لا كَلامَ إلا ما أُضْمِرُهُ

اللُّغة في هذه المدينة تقولُ كل شيء إلا الحقيقة.. اللُّغة هنا رأس مالٍ، تعويضٌ عن خسائرَ فادحةٍ، تعويضٌ عن نقصٍ حادٍّ في القيم والأحاسيس. اللُّغة في هذه المدينة قناعٌ سميكٌ وخلفها عالم أكبر من المُضْمَرات ومن "السِّتر" اللهمَّ أدِمْها نعمةً علينا.

وقبل أن تكون اللُّغة في هذه المدينة لِلتَّواصُل فإنها أداةُ إضْمارٍ.. المرأة المُكْتنَزة الجالسة تحت الشجرةِ وسط الساحة تُدْعَى "الشْرِيفَة" أو "السيِّدة" والكلُّ يعرف أنها "عاهرة". النَّادل الذي يَخْدم الرجل الجالس أبداً أمام العمودِ هناك يُضْمِر الاعتِقادَ بأن زبُونه مُخْبرٌ لكنه يناديه دائماً "أسْتاذ" أو "السِّي".. بائع السِواكِ والجلابيب أمام المسجد سيُغْري صاحبه ويُقْنعه بأن حَمْلَهُ للرمال من المُقْلع بدون ترخيصٍ لا يُعْتبر سرقةً وفي قرارَة نفسِه هو غيرُ مُقتنِعٍ لأن الشيوخ الذين اسْتَفْتَاهُم أجمعُوا على تحريم هذا العمل، لكنْ لماذا تُصرُّ الكلماتُ على إضْمار الحقيقةِ وتَسْمِيَّةِ الأشياء بغير أسْمائِها..

عالم الأقنعة هذا، ماذا سيَحْدُثُ لو تعَرَّتْ فيه اللغة؟

كنتُ دائماً أطْرحُ مثل هذه الأسئلة على نفسي لأنَّ حياتي أصبَحَتْ لا تُطاق، فقد كنْتُ كَمَن يمْشي بقدمين على جسرين يتباعدَان.. شيئاً فشيئاً.. عالم من الكذب والنفَاق، كذبٌ حدَّ التخْمة.. ومُنافقون كُثُر يعِظون ويُقدِّمُون دروساً في التقوى، وأقنعةٌ فوق أقنِعة، ووجوهٌ فوق وجوه، وأيْدِي تخرج من الأيَادي وأصابعُ تحرِّك الأصابعَ، عالم من الدُّمَى المتحرِّكة، حفلةٌ تنكُّريَّة، وأنا دُمية تُطَوِّحُني الغرائز وأدَّعي أني أبْحث عن قطعة خُبزٍ لكني في الحقيقة أبْحث عن نبيذٍ وفخذِ لحمٍ..

ماذا سيحْدُث لو تَعَرَّتِ اللغةُ؟

علماءُ اللُّغة السابِقون لم يهتمُّوا سوى بالأصوات والحركات، وكيف تُرْسَمُ، وكيف تُكْتَبُ، وكيف تُنْطَقُ، وكيف تُسْمَعُ، وكيف تُرْفَعُ، وكيف تُنْصبُ، وتركُوا اللغة تفْعلُ فِعْلها بِنْت الْـ.. تَرْفعُنا وتنْصِبُنا وتُثَبِّتُ علاقاتِنا وتُطوِّحُ بها.. لقرون والمفكِّرون والفلاسِفة يَعْصِرون عقولَـهم لفهْم كيْنُونَتِنا الزئبْقِيَّة الشَبَقِيَّة، فعجنُوا الأفكار والنظريَّات في شتَّى فُروع العلوم وما دَرَوْا أنَّ هذه الكيْنُونَة اللغويَّة هي ما يَتَحَكَّم في حيواتِنا، هي ما يصْنعُ السعادة والتعَاسة، هي ما يَقْتُل وما يُحْيي، يكفي

أن تقول لي كيف تَتَكَلَّمُ لأقول لكَ كيف تعيش؟ ألم يَقُلْ أحدُهم: تكلَّم حتى أراكَ.

هكذا يَنْزَعُ الناس في هذه المدينة إلى التأْكِيد على نوْعِ اللُّغة، أمازيغيَّةٌ أم عربيةٌ أم فرنسيةٌ، وهم يُضْمِرُون نوعاً من الاصْطِفافِ والانْحِياز غير البرِيء ويَحْدُثُ أن يَتَمَوْقَعَ المتَحَدِّث إليك بناء على شكل لُغَتكَ، ولَكْنتِكَ.. وتنتَهي المساوماتُ الطويلة بالإعْلان عن الانْتِماء للُغةٍ ما، وتبدأ المشاحَنَات الكبيرة باسْتِهْزاء وسخرية أيْ بكلمة مُنْفَلِتَةٍ في لحظة مُكاشفَة وعُريٍ للُّغة.

هل عليَّ اختيارُ إلْغاء كيْنُونتِي ودفْنِها تحت أقنِعةِ اللُّغة ولا كلام حينها إلا المُجاملات والكذب والخداع والنفاق؟؟.. . وهل علي الاسْتِمْرار في تلْمِيع أقنِعتي: قناعُ الاحترام وخلْفَه وجه الازْدِراء، قناع المحبَّة وخلفه وجه البُغْض، قناع الإيثَار وخلفه وجهُ الأنانيَّة، قناع التقْوى وخلفه وجهُ كافرٍ؟؟؟.. . أقنعةٌ لكلِّ المواقف، ولكلِّ المناسَبَات، تُسَهِّل الحياة وتجْعَلُها سَلِسَةً لكنَّها تقتُل ذواتنا، فهل عليَّ تَشْييعُ جثَّتي والترحُّم عليَّ.. يا إلهي كم تحمِل زوجتي من قناعٍ؟؟ الآباء؟؟ الأمَّهات؟؟ الأبناءُ؟؟ الإخوة؟؟ الأصدِقاء؟؟ الزُملاء؟؟.. .إنَّ أمرَهم

أشْبه بهدايا كثيرة مُغَلَّفَة بورقٍ بَرَّاق، ورقٌ ملْفُوفٌ، مُزيَّن بالورود والنجوم اللامِعة، وداخل الهدايا أشياءٌ بشِعة ومُقَززة!!؟ ماذا تتوقَّع أن تجِدَ؟؟؟

لِأبدأ بنفسي، أنا هذه الهديَّة المُلغُومة على طبقٍ مِن ذهبٍ بالنِّسبة لزوجتي، بالنِّسبة لوالدَيَّ، بالنِّسبة لأساتذتي وأصدقائي.. كم تَحْجُب اللغة من حقائقَ عنِّي؟؟ كم تُضِمر؟ كم أُضْمر؟

ما ذا سيحدث لو تعرَّت اللغة؟ ماذا سيحدُث لو طبَّقْت شعار "لا كَلامَ إلا مَا أُضْمِره"؟

وقرَّرْتُ لعِب هذه اللعبة الطريفة بيْني وبين نفسي علِّي أصِلُ لِانْسِجامٍ مرجُوٍّ بيني وبين نفسي: " لا كَلامَ إلا ما أُضْمره"

_ أمام مسجد الرحمة.. بعد صلاة العصر.

نطقْتُ العبارة بثِقةٍ وجُرأة أمام زوجتي وأنا أحمِلُ الهاتفَ، ففي عالم نحْترف فيه النفاقَ والخداع يُفْتَرُض قولُ الكلام بعَيْنين تحدِّقان في الآخر المكْذُوب عليه بثِقة عاليَّة دون أدْنى تَسَرُّب للتردُّد في نبرةِ الكلام. ورغم ذلك اسْتَفْسَرَتْني عن المُتصِل قلت لها إنَّه الحاج "مبروك".

لو طبَّقْتُ شعار "لا كلامَ إلا ما أضْمِره" مع غيري لكانتْ زوجتي تسمعُني أقول:

_ أمام مَلْهى "الريَّاض".. على الساعة الرابعة.

ولكان جوابي عن سُؤالها:

_ المُتَّصِل؛ راقصة الملْهى اللَّيلي الذي كنْتُ أسْهرُ به البارحة.

ليَكُن ردُّ فِعلها أيّاً كان، سأنْصرف على كلِّ حالٍ.

في الطريق أُفكِّر في المسافة بين الشعار والواقع. مَسؤولُون يدَّعُون أنهُم يسْهرون على خِدمة المواطِن في الوقت الذي يسهرون اللَّيالي الحمراء. مُنْتَخَبُون يُسَفِّهون بعضهُم البعضَ، نقابيُّون يعمَلُون يوم الإضراب. مُناضِلون يُناضلون لأجل المآرِب الخاصَّة. ومرْضى يتَمارَضُون، وموْتى يتَماوتُون..

لا أدري متى وصلتُ أمام مسجد الرحمة.. هل كُنتُ أقصِدُ أن أكُون هُنا؟ يبْدو أنَّ كثرةَ التفكير أفْقَدَتْني التركيز. نظرتُ إلى ساعتي بتوتُّر على مَسْمَع آذان العصر، ساعةٌ تحفةٌ تزيِّن مِعْصَمي منذ اشْتريتُها من ذلك الطفل بثمنٍ بخْسٍ، الغبيُّ لم يقدِّر ثمنها الحقيقي، وهو على الأرْجَح سرَقَها، وقد تَغَاضَيْت عن الأمر وساعدتْني لُغتي المخَاتِلة في

الاعتقادِ بأني اشْتريتُها من بائعٍ مُتجوِّل وما أكثرهُم الباعةُ المتجوِّلُون.. هَمَمْتُ بالتوجُّه نحو ملهْى "الريَّاض" حين بادرنِي "شُعيب" بائعُ السواك والأشْرطة القرآنية بالتحيَّة والعِناق، وعرفنِي على صديقَيه وزميلَيْه في التجارة، أحدُهما صاحبُ عربةٍ فواكه والآخرُ بائع زجاج وأخبرَهُما أنَّني رفيق الطفولة، وأنه يَتَفَاءَل بي ويَحْسُدُني على طِباعِي النبيلة.

(لو طبَّقْتُ شعار "لا كلامَ إلا مَا أُضْمره" لكُنْتُ قد ذَكَّرتُ صديقيه بأنني أوَّل من قاده إلى الماخُور، وأنَّنا يا ما تَلصَّصْنا على نِسْوة الحَمَّام، وأننا مارسْنا العادة السريَّة جهاراً، وأننا كنا نتبادل السيجارةَ الواحدة كما يتبادل العُشَّاق القُبُلات.)

تابع "شُعيب" كلامه مُحْتفِيّاً بي، مُخْبراً صديقيه أنَّني المثال الذي يُحْتَدَى. (الحقيقَة، كلامُه الجميل دغْدَغَ مشاعري، وجعل أسارِيرِي تَنْفَرِج) لولا أن الشعارَ الذي أرفعُه بيني وبين نفْسي كان يهبِطُ عليَّ كالمطْرقة: "لا كلامَ إلا مَا أَضْمرهُ.. لا كَلامَ إلا ما أَضْمرهُ.. لا كَلام إلاَّ ما أَضْمرُه".

***

(أنتَ كذَّاب ومُنافق يا "شُعيب"، أعْرفُ أنكَ لا تُصلِّي في هذا المسجد إلا لِتَرْويج تِجَارتِك، ولا شكَّ أنَّك تُصلي في الصفِّ الأخير لِكَي تكُون آخر من يلْتَحِق بالصلاة وأوَّل من يُهَرْول لِيفْرش بِضاعَته).

***

لو أنَّني قلْتُ ذلك ما الذي سيَحْدث؟ هل سَتَنْطَبِق السماءُ على الأرض؟ هل سَتُصْبح عدوِّي يا عدوِّي.. كانت نفسي تَهْجِسُ بداخلي: (_ لا مجال لمزيدٍ من العداء، ولا تنسَ أنَّ الشعار هو في طَوْرِ التجْريب، وليس المطلوب منك الآن أنْ تُجربه في الآخرين.)

تظاهرتُ بالاتِّزانِ وأنا أُكَوِّرُ ابتسامةً كبيرةً على محُيَّاي، وقبل أن أهمَّ بالانصراف قال الْفاكِهَاني صديق عدوِّي:

_ خيْر مُناسبة يلْتقي فيها الأصدِقاء هي مُناسبة الصلاة.. لقدِ الْتقينا على الخيْر ولن نفْترِق إلا على الخَير.. حيَّى على الصلاة.

_ ولكن..

***

كانت اللَّحظة مُواتيَّة لأنْ انْتقِل إلى تطْبيقِ الشعار، والكلامُ الذي أُضْمِره اللَّحظة هو:

(_ ولكنِّي.. لم أتعَوَّدِ الصلاة!

_ لم تتَعَوّدِ الصلاة!!؟

_ ألستَ مُسلماً؟!!!

_ أ أنتَ كافرٌ؟!!!!

_ أ أنتَ فاسقٌ؟!!!!

أن يكون هذا الحوار بيْني وبين نفسي معْناهُ أَنَّني أنْشَطِر وأظهر على حقيقتي _ على الأقَل بالنِّسبة لي_ وأن يكون هذا الحوارُ بيني وبين نفسي، مَعْناه أَنَّني قابلٌ للانْشطار وتَفْرِيخِ أنْفُسٍ أخرى، هذا ما دَلَّتْ عليه الأصوات المُتصاعِدة من داخلي:

_ يسألونَكَ عن نَفسِكَ، قُلْ لهم "لا تسألُوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكُم تَسُؤْكُم".

_ الواجهة البهِيَّةُ التي تحرصُ على تلمِيعِها من أَخْمُص حِذائِك إلى جبْهتِك المتقَدِّمة..

_ ماذا عنْها؟

_ ستُخْدَشُ.

_ لِيَكُنْ.

_ سَتُشَوَّهُ.

_ لِيَكُنْ.

_ هل تجْرُؤُ أن تكون عارِيّاً أمام الناس؟؟

_ أَجْرُؤُ أن أكون كذلك بيْني وبين نفسي في المرحلة الرَّاهِنة على الأقَل.

_ لا تنْسَ أنَّ الشعارَ في طوْرِ التَّجْريب، بينَكَ وبين نفسِكَ.

***

_ ولكِن ماذا يا أخي؟

انْتَزَعَتْني العبارة الأخيرة من غَفْوَتِي فتدَارَكْتُ:

_ ولكن.. لا بُدَّ أن أتوضَّأَ يا إخوة.

تَحَسَّرْتُ كثيراً أنَّني لم أُنَزِّل الشعار على أرض الواقع، وبينما أتَوَضّأُ رنَّ الهاتف المحْمُول. كان صوتُها الغاضب يخْترق السَّماعة:

_ أين أنتَ؟؟ تأَخَّرتَ.. ولا زلتُ بانتظاركَ.

أجبتُها فوراً محاولاً احْتواء غَضْبَتِها:

_ أنا بمسجد الرحمة.. لن أتأخَّر كثيراً..

لم أضعْ رقابةً على لِساني وأنا أتَحَدَّثُ إليها، كذلك كانتِ المرَّة الأولى التي ألْتَزِم فيها بشِعاري الأثير. توقَّف سيلُ صُراخها. أغلقْتُ الخطَّ ونظرت يميناً وشمالاً وتيّقَّنْتُ أنهم في انْهِماك تامٍّ بالوضُوء إلى المنْكِبين وإلى الكُوعَين بمَن فيهِم الشابُّ بائع الزجاج الذي يدَّعِي أنه يُجَدِّد وُضوءَه كل صلاة، في حين أنَّ رِيحَه قد أزْكَم أنُوفنا قبل أن ندخل مَيْضأةَ المسجد. لو كان "المياضي*" يتكلم لأشار بأصبُع الاتهام إليه، خاصَّة حين قال بِبَجاحةٍ يُحْسد عليها:

_ الله يَهْدِي الجمِيعْ. الرائحةُ هنا تُزْكم الأنُوفَ.

ظلَّ شعار" لا كَلامَ إلا مَا أُضمرهُ" يهْوِي عليَّ وأنا أضع حذائي في المكان المُخصَّص له، وأنا أسْتَبِيحُ البِساط المزَخْرَف الأنِيق وأتَّجِه نحو صُفوف المصلِّين.. ما معنى أن أقولَ: " لا كَلامَ إلا مَا أضْمره" معنى ذلك أنْ أُطَبِّقَ. معْناه أن أنْسحِب من بين الصفوف وأتَّجِه بكل خُشوع

* – المياضي: هو الاسم الذي يطلقه بعض سكان المغرب على مكان الوضوء في المسجد.

نحو ملْهى "الريَّاض". بكل بساطةٍ هذا هو المطلُوب، ولا أظُنُّه يُثِيرُ إلا بِضْعَ تساؤلاتٍ، ووَسَاوسَ وربما تَعَكَّر صفْوُ الوِصال بين المصلِّين وربِّهم_ لِنقُلْ إن الأمر لن يُثِير إلا وَسَاوِسَ تَنْضَاف إلى وَساوِسَ أخرى تُنَشِّطُ الرُؤُوسَ تحت العَمَائِم.. كان الأمر سهلاً، لكني لم أفعلْ للأسف، ربما لأنَّ مكاني داخل الصفُوف هو بِمثابَة الحبَة داخل السُّبْحَة.

وأنا أنْتَعِل الحذاءَ والأصدقاء الأعداء قدِ الْتَحقُوا سريعاً بتِجارتهم، كنْتُ أشعُر بنفسي مثل الفأر في المصْيَدة.. اسْتوقَفَني الحاجُّ "مبروك" وبعد تبادُل التحية نَبَّهني إلى أن الأمر اخْتلَط عليَّ فانْتَعَلْت فرْدَتَين من حِذاءَين مُخْتلِفين.

في اللَّحظة ذاتِها كانتْ زوجتي تَطْلُب من سائق الأجْرة أن ينطَلِق فقد تأكَّدتْ أني مع الحاج "مبروك"، وبالتحْدِيد أمام مسجِد الرحمة بعد صلاة العصر.

لم أعرفْ أنها كانت تَقْتَفِي أثَري إلا بعد اعْتِرافِها الحَار، وإحسَاسِها بِتَبْكِيتِ الضمير، الأمرُ الذي جعلني أبكي على وقاحتِي، ولكنَّ ابتسامتي ظلت مُشْرِقة فلا كَلامَ إلا وَأُضْمِرُهُ.

الخُــــم

هذه المدينـة خُـمٌّ كبـيرٌ.. دجـاجٌ كثـيرٌ.. وبـيضٌ وفـيرٌ.. دجـاجٌ وكتاكِيتُ في كلِّ مكانٍ على حـدِّ البــصر.. المدينـةُ الخُـمُّ يُحيطها سـورٌ، وخلفَ السُّور دجاجٌ كثيرٌ، وخلف السُّور والوادي طُيور كثيرةٌ تمْـرح في البراري والحقول.. والخُم الكبير يَنْغُلُ بالدجاج، في الشوارع، في الأزقَّة، في المـدارِس، في الأسـواق، في الإدارَات، في الملاعِـب، في المحـاكِم، في أقسام الشرطة، في أَرْوِقة المسْتَشْفيات.. دجاجٌ له نَقْنَقَةٌ تَملأ الفضاء، ولـه بُرازٌ يملأ الأرض.. بُرازٌ بُنيٌّ، وأصفر، وأخضر..

وتسِير الدجاجات في طوابِيرَ، وتسير الحياة في سَلاسَةٍ. والمدينة خُمٌّ كبيرٌ.

وفي محطَّة المدينة حيث الحافِلات والشاحِنات، تُفْرِغ شُحناتٍ من طيورٍ بأنواعَ كثيرةٍ. كلها مَهِيضةُ الأجْنحة. طيور تمشي مُترنِّحَة، مُتَثَاقِلة، تنْقُر الأرض كل حينٍ وخلفها صِيصَانٌ وتحت أرْجُلها حَبٌّ كثيرٌ اخْتَلَط

بذَرَقِها.. وتعيش المحطة على إيقَاعها الرتِيبِ تُرسِل الشُحنات إلى مكانٍ قصِيٍّ وتأتي بشُحناتٍ من مكانٍ بعيدٍ، وتستمرُّ الحياة..

ومِن حين لآخرَ يظهر ديكٌ.. والديَكَة قِلَّةٌ.. همْ أسْياد الخُم الكبير.. يَمْتَطُون السيارات الفارهة ويَمْتَلِكون العَقَارات الكبيرة والمزارع الشَّاسعة.. لا يأْبَهُون بِنَقْنَقَات الدجاج أسْفَلَهم.. نَقْنَقَةٌ صاخِبة، نَقْنَقَةٌ خافِتة، نَقْنَقَاتٌ مُتَسارعَة، نَقْنَقَاتٌ مُتباطِئَةٌ.. والمشهد سوقٌ مُتلاطِمٌ، والدجاج أحْمَر وأصفَر وأسْود وأغْبَر وأبْيض وهذا الأخير هو الأكْثر.. دجاجٌ وديعٌ ورأْسُه في الأرضِ، يَقْنَعُ بالقليل من الماء والقَلِيل من الحبِّ والقليلِ من الضوء والكثيرِ من النوم.. دجاجٌ يَنْقُر في كل مكان، ينْقُر الحبَّ، يَنْقُر الفَضَلاتِ، ينقُر البُراز، ينْقُر الترابَ، ينقُرُ ظِلَّه، ينْقُر كل شيء، وكلُّ دجاجةٍ تعوَّدت أن تنظُرَ إلى ما بِمِنْقار غيرها.

في أول اليوم.. نَقْنَقَةٌ خافِتة ونَقْرة.. نَقْنَقَةٌ أعلى وتقْفِز إحداها وكأنَّها حصلَتْ على صيدٍ ثمينٍ.. نقْرةٌ ونَقَرَاتٌ وتعلُو النقْنَقَات، ثم تَخْفِت تدريجِياً عند سماع صياح الديك القادم بسيَّارته.. ويُشْحَنُ الدجاج

الكثير بأمرٍ من السيد الديك ويُنْقل على مَتْن شاحنات صغيرة إلى الضيْعات الكبيرة..

تَـجْمَعُ الدجاجات حباً كثيراً، وَتَمْلأ أكياساً كبيرةً، وتعود كلُّ دجاجة في نهاية اليوم راضِية مَرْضِيَّة وفي فمِها حُبَيْبَات معْدُودَات لها ولِصِيصَانِهَا الصغيرةِ.

وفي الخُمِّ الذي يُشبه مدينةً كبيرةً تأوي الفِراخ إلى حُفَر صغيرةٍ وتَنَام مُطْمئنَّة، تَنْكَمِش على ذاتِها، على بيضِها، تَتَسَلْحَف، تَتَحَلْزَنُ وتنام في أحذِيتها، وفي الصباح تَتَرَاخى وتَنْتَفِخ كعُضو تناسُلِي تَسْتثِيرُه شهْوة الحياة. وحدَها الديّكَةُ المزْهُوَّة بتِيجانِها لا تَنْعَمُ بالنوم في ضيعاتها الكبيرة، تخاف على دجَاجها الكثير مِن ثَعالِبِ الزمان: ثعالبُ القَهْر والفوضى والتمَرُّد والجوع.. وَتُقَدِّمُ دائما قرابينُ من الدجاج فِداءً لها، قرابينُ تُذْبح وتُنْتفُ وتُشْوى لأجل أن تُنْضَج على نارٍ هادئة وتُؤْكَل..

دجاجٌ كثيرٌ يعيش في الخم الكبير ويقْنَع بالكفَاف، ينقُر الحبَّ وإنْ لم يجدْ ينقُر الخبز، وإنْ لم يجدْ ينقُر البُرازَ، وإنْ لم يجدْ ينقُر الأرض.. لكنَّ ما يُؤْرِقُ الديَكَة هو ذلك الدجاج المُتَنَطِّعُ الذي يأْنَفُ شُرْب البول إنْ لم

يجِدِ الماء، ويأْنَفُ العيش في الحُفر إنْ لم يجدْ تِبْناً وثِيراً، بل ويأنَفُ العيش في الخمِّ الكبير ويأنَفُ العيش خادماً للدِيكَة.. ويزداد غيظُ الدِيكَة كلما سمِعَتْ نَقْنَقَةَ هذا الدجاج المُتنطِّع في أقْفَاصه.

هكذا حُدِّدَتْ مَراتِبُ أهل الخمِّ الكبير:

الدِيكَة ذاتُ التِّيجان الحمراءِ في الفيلاَّت والقُصور.

والدجاج المُتنطِّع في الأقفاص الحديديَّة.

والدجاج الأبيضُ في الحُفر وفي القُبور.

وهكذا أُريدَ لِهَنْدَسَةِ الخمِّ أن تكون.. سورٌ عظيمٌ يحيط بالخُمِّ الكبير، وداخل الخُم حُفَرٌ وأقفاصٌ ومزابلُ وضيْعاتٌ وفيلاَّتٌ.. وخلف الأشجار العالِية بيوتٌ فخْمةٌ تؤدِّي إليها طرُقٌ معبَّدةٌ يلمْعَ إِسْفَلْتُها، لا بُرازَ عليها أو على جَنبَاتها.. وفي آخر الطريق حُراس غِلاظٌ وأبواب حديديَّة..

تَحرسُ الديكَة الخُمَّ وتَقِف على شُرُفات السور، ترى مِن عِلٍّ الدجاجات تَسِير وخلفها كتاكِيتُها.. تُشْحَن وتُفْرَغ.. تُوطَأُ وتُنْكَحُ..

ويَتَنَاثُر ريشُها على وَقْعِ نقرات الديكَة تَثْقُبُ ظُهُورها، حِرصاً على نِظام المْرْفِقِ واستْمراريَّة الحياة.. وفي عُرْف الديكِ أنَّ هذه القسْوة تحْمي الدجاجات مِن بَلادَتِها، وتحْمِيها من الثعَالب والذِئاب المُتربِّصَةِ بها.

وفي الخُم الذي يشبه المدينة أطْوارٌ غريبةٌ طرَأَت على الدِيكَة، فقد بَحَّ صوتُها ولم تعد تُؤذِّن كثيراً، وانْشَغَلتْ بِتِيجانها ونَفْشِ ريشِها وتَغَاضتْ عنِ الدجاج الذي لا يعرف مصلحتَه.. تغَاضَت عن الدجاجات الشاردَة على الأسْطُح، وعلى الحيطان، وأخرى تَجرَّأتْ على الحدائق وعلى قُدْسيَّة المآذن والقِباب البيضاء المباركة.. تتغاضى الديكَة لكن صوْلتَها لم تُمرَّغ أبداً في التراب، وظلَّت حائطَ الصدِّ المنيع ضدَّ غاراتِ الثعالب.. وحفاظاً على النظام والسير العادي لم تَتَوَرَّع الديكة عن مَلءِ الأقفاص الحديدية بالدجاج..

وعُلِّقَتْ سَفَافِيدٌ، وشُوهِدت دجاجاتٌ عاريَّات بلا رؤوس يُشْوى لحمُها الأبيض عِبْرة لمن يَعْتبر، وفي كل مرةٍ كان دجاج كثيفٌ مثل السحاب الأبيضِ يَتَجَمْهَرُ محيطاً بالنار وهي تأكُل أفخاذ الدجاجات، وفي كُل مرة يقف الديك يَتَوَعَّدُ الدجاج الذي لا يُحِب أن يكون دجاجاً

ويُحذِّر من مَغَبَّةِ التمرُّد على الأسياد. فوراءَ كل سيِّدٍ عظيمٍ ثعالب وذئابٌ..

وإلى مِقْصَلة الذبح مَشَتْ طوابيرُ الدجاج إلى حَتْفِها.. ونُفِّذَتْ إعْدامَات كثيرةٌ، وتَكَرَّرَت حالاتُ الانتِحار الجماعي وتَواتَرت حوادث الاخْتِفاء..

وخرجَتِ الديكَةُ عَنْ صمتها فَنَدَّدَتْ، وحَذَّرَتْ، وتوعَّدَت، وقالتْ إنَّ الذئاب والثعالِبَ تُحِيط بالخمِّ، بل إنَّه ليس مُسْتَبْعداً أن تعيش في الخمِّ.. وساد الرُّعب، وأصبح خلف كلِّ حادثةِ شِوَاءٍ ثعالبُ، وخلف كل واقعةِ ذبحٍ ثعالبُ، وخلف كل اختفاء أو تَنْكِيل أو انتِحار ثعالبُ..

وثَارَتْ ثائِرةُ الدِيكَة، ونُفِيَ دجاجٌ كثيرٌ، واعْتُقِل دجاجٌ كثيرٌ وعُذِّب دجاجٌ كثيرٌ بِتُهَمِ العَمالة والتَنكُّر في لُبُوس الثعالب..

تعاظَمَتْ مسؤوليَّات الدِيكَة حين أيْقَنَتْ أنَّ السور لم يعد يَمْنع الثعالب من القيَّام بغاراتها وغَزَواتها.. وتَعَاظَمَت أكثر حين تأكَّدت أنها أصْبَحَت تُحارب في جَبَهات خارجية وأخرى داخِلية.

تواصل عمل الدِيكَة لِلْحفاظ على هَيْبَتِها وقَمْعِ وزَجْرِ وتأدِيب الدجاج المُذْعُور، وتواصل عَملُ النهار بِعَمَلِ اللَّيل. وفي المرَّات النادرة التي كانتِ الدِيكَة تَخْلُد إلى الراحة على أسِرَّتِها الوثِيرة، وكانتْ تُزِيل بِذْلاتِها الأنِيقة وتفُكُّ ربطات أعْناقها وتضع تِيجانها.. كانتْ من بينِها ثعالبُ تُزيل أقْنعةَ الدِيكَة عن وجُوهها وتنام بعينٍ واحدةٍ استعداداً ليوم جديدٍ مِنَ التعب والعناء والمسْؤوليَّات الجِسَامِ.

الشَّـــعْرة

.. غيرُ بعيدٍ من البيت الذي يَسْكُنه "عْبيقَة" يقع مسجد الرحمة وبجانبه منزل الحاجِّ "مبروك"، يَعُودُ كلَّ مساءٍ بعد صلاة العِشَاء وفي يديْه كِيسَان: كيسُ موزٍ، وكيسُ تفاحٍ. ينَام باكراً ويسْتيقِظ باكراً ليُصَلي صلاة الفجر.. بعد الصلاةِ يَسْتَلُّ مِن قُبِّ جِلبابه نظَّاراته الطبيَّة ويَفْتح المُصحَف على سورة "يَسٍ" ويُمْعِن النظر في الأسْطُر وفيما بينها وفي الهوامِش وزوايَا الصفحاتِ وكأنَّهُ يَبْحثُ عن شيءٍ ما، لقد أدْمَنَ على تصفُّح كِتاب الله بعد كلِّ صلاةِ فجرٍ حتى عُرِفَ بالصلاح والتقْوى والوَرَع والخُشُوع ولم يكُن لِيَرْفَع رأسه لِشِدَّة ترْكِيزِه، عكْس جارِه "علاَّل التِنِسْ" الذي يقع دُكانه مُنْتصف الزُقاق وأمام الدكان بخطوتَيْن، تَعَوَّدَ أنْ يَقْبَع على مقْرُبة من قِنِّينات الغاز على كُرسيٍّ أَرْجُلُه طويلة، وأمامه وضع مُصْحفاً كبيراً..

أَلِفَ الحاج هذا المشهد، مشهدُ "علاَّل التِنِسْ" المُنْشَغِل-كما يبدو- بقراءة القرآن وكثيرُ الالْتِفَات والشَّبِيهُ بحَكَمٍ في مُنْتصف ملعبِ

تِنِس أو ملْعَبٍ للكرة الطائرة، فنظراتُه تَحُطُّ كالكرة الطائرة عند ذاك الشُبَّاك وتحُطُّ مرةً أخرى عند ذلك الباب بِمُجرد خروجِ أحدِ الجيران وتَطِير في اتجَاهٍ مُعاكِسٍ وفي انْحِرافٍ مُفَاجِئٍ وحادٍّ مع ظهور درَّاجةٍ عند المنْعَطَف وتُتَابِع نظراتُه "خَنْدُوشة" القادِمَة من جِهة اليسَار خُطوةً خُطوةً.. وحين تَقْترب، يَغُضُّ البَصَر ويعود إلى التِلاوَة ويبدأُ السَّطر من اليسار لِيُنْهِيه يمينا ولِيُتابِع "خَنْدُوشة" مرَّةً أخرى من الوراء هذه المرَّة خُطْوة خُطْوة.. إلى أن تخْتَفي.. ثم يَعُود من جديدٍ لِلْقراءة من اليمين إلى اليسار لِيُنْهِيَّ القراءَةَ بالْتِفَاتَةٍ جديدةٍ إلى جِهةِ اليسار ولِيَرْقُبَ مَقْدَمَ الحاج "مبروك"، وفي كل مرَّة لم يكُن الحاجُّ لِيمُرَّ دون إلْقاءِ نظرةٍ على المصْحَف الكبير مُتسائِلا: لماذا دائماً سورة يَسٍ؟ !

الحاج فيما يَتَعَلَّقُ بالأمور الدينية مُسْلِمٌ مُسَلِّم مُسَالِمٌ، فما دام "عَلاَّل" يَفْتح المصْحَف فإنه مُواظِب على تِلاوَتِه ولم يَدُرْ بِخُلْده أبداً أنَّ "عَلاَّل" قد يتظاهر بتِلاوَة القرآن..

درَّاجاتٌ تمُرٌّ، غُبارٌ كثيفٌ، أطفالٌ مُشاكِسون يَمْلأون الدنيا زَعِيقاً، زُبَناء يَبْتَاعُون حاجِيَّاتِهم: خُبزاً، حليباً، حَفَّاظات، بيضاً، حلويات، زيتاً، مِلحاً، خميرةً، زُبدةً.. نِعَالٌ تَخِبُّ الطريق و"عَلاَّل" كثِيرُ

الالْتِفات، أبوابٌ تُفْتح وأخرى تُغْلق، ونوافذُ تُغْلق وأخرى تُفْتح، وصيَاحٌ وجَلَبَةٌ ونُباحٌ ونَهيق وصراخٌ وسوقٌ في الزُقاق.. وفراغٌ وصمتٌ و"عَلاّل" يَهمُّ بإغْلاق الدكان..

وينام الزقاق ولا ينام فُضُول الحاج.. يسْتيْقِظ آنَاءَ الليل، يَطْرق باب "عَلاَّل التِنِسْ" وهو يَتَصَبَّبُ عرقاً رغم البرد القَارس.. وعلى ضوء المصباح الشَّاحِب يقف الرجلان.. يتهامَسَان، يُوَشْوِشَان، يُلَوِّحان بأيدِيهِم.. يَتَثَاءَبان، يبْتَسِمان، يتَجَهَّمان، تَنْكَمِش قَسَمَاتُهما، وفرائصُ الحاج تَرتَعِد..

ينام الزقاق، والحاج مُسْلمٌ مُسَلِّم مُسالِمٌ مُسْتَسْلِم على سريره الحريري والشَرَاشِفُ تَتَهَادَى والستائر تَتَرَاقَصُ.. مُغْمض الجفْنَين في سابع نَومَةٍ، وأقمار عوالِمه الروحانيَّة مُسْتيْقِظة.. أصواتُ الحُجَّاج في البيت الحرام وأصواتٌ جَنَائِزِيةٌ تَمْتَصُّها أعماقُه، كما تَسْتَنْشِق الخَيَاشِيم عَبَقَ تُرابِ صباحٍ نَدِيٍّ.. ويَرى في المنام ظِلَّه يقِف تارِكا جسدَه، تارِكا الفِراش.. يَطُوفُ مع الحُجَّاج.. يجِدُ نفسَه أمام قبرٍ يُوقِن أنه قبرُ الرسُول الكريم.. يُطِل عِند رأسِ القبرِ، يرى وَجْهَهُ الكريم، يُشِعُّ نوراً، يرى ظلَّه المُنْفصل عنه يقوم ويأخُذ بِيدِه إلى حيثُ تَتَصَاعَد أصواتُ تراتِيلِ

الْقرآن.. يُوقِن أنه أمامَ بيْت ودُكَّان "عَلاَّل" يختَفِي ظلُّ النبي ويشعُر بِفَراغٍ مُهْوِلٍ، كمن يَتَهَاوَى إلى ما لا نهاية.. يسْتَيْقِظ مُتَصَبّباً عرقاً.. يجُافي النوم جَفْنيه وينام الزقاق ولا ينام فضول الحاج.. يقُومُ آنَاءَ الليل يطْرُق باب "عَلاَّل" وهو يَتَصَبَّبُ عرقاً، رغم البرد القَارِسِ..

وعلى ضَوْء المصباح الشَّاحِب يقِفُ الرجُلان.. يتهامسَان، يُوَشْوِشَان، يُلَوِّحَان بأيْديهِم.. يَتَثَاءَبَان، يَبْتسِمان، يَتَجَهَّمَان، تَنْكَمِش قَسَمَاتِـهِما، وفرائِصُ الحاج تَرْتَعِد.. تُطَمْئِنُه كلماتُ "عَلاَّل" وهو يَهْمِس في أُذُنيه بِكلامٍ كبيرٍ.. كبيرٍ.. كبيرٍ.. لا يُضاهِيهِ كِبراً إلا اتِّسَاع عينيهِ الكبير.. الكبير.. ومنذ ذاك الحين والحاجُّ يُواظِب على فتح المصْحَف على سورة "يَسٍ" بل واشْتَرى نظَّارات طبيَّة، وأمْعَن النظر في الصفحات وكأنَّه يبْحث عن شيءٍ مرغُوبٍ فِيه..

***

تهَلَّلَ وجه الحاج اليومَ حين رأى الطفْل "عْبِيقَة" يدخل "المْياضِي" لِيَتَوضَّأ واسْتَبْشَر خيراً، فقد كان مُسْلِماً مُسَلِّماً مُسَالِماً مُسْتَسْلِماً ولم يتبَادَر إلى ذِهنه أبداً أنَّ "عْبِيقَة" قضى ليلتَه بالشَّارِع..

وتَفَاءلَ الحاج بهذه العلامة وسارَع بعد الصلاة إلى فَتْح المصْحَف على سورة "يَسٍ" وقلَبَ صفحات الكتاب بِتَوْءَدَةٍ وبِحِرصٍ شديدٍ. أمْعَنَ النظر هُنَيْهَةً فداهَمَتْهُ إغفاءَةٌ قصيرةٌ، لَعَنَ الشيطان الرجِيم وأزال نَظارَتيه ومسح عينيه..

وضع الحاج النظَّارات مُجَدَّداً على عينَيْه ورَكَّزَ نظراتِه في صفحات سُورة "يَسٍ" واستَقَرَّتْ على شُعَيْرَةٍ في مَفْرِقِ المُصحف، فانْتَابَتْه قُشَعْرِيرَةٌ في عمُودِه الفِقَري وتَجَمَّدت أصابعه وجَحَظَت عيناه وتَوَقَّف شَعْرُ رأسِه وفي داخِله كانتِ المشاعِر مُتَلاطِمَة، وقلْبُه يدُقُّ.. يدُقُّ.. وغَشِيَه في لحظةٍ ما جَوٌّ رُوحاني رَبّاني واجْتَاحَهُ شَلاَّلٌ إيمانٍ جعَل السمَاء أقْرب إلى الأرض.. شلاَّلٌ من الطاقة الإيجابِية مَلأَ رُوحه، شُعورٌ لم يَسْبِق له أن أحَسَّ بِه حتى وهو يُنادَى لأول مرَّة بِلقب "الحاج"..

إنَّه الآنَ ولِيٌّ صالح.. قِدِّيسٌ مُصْطَفى.. مُباركٌ مَبْرُوكٌ.. وفي عقله الباطن تَزَاحَمَتِ الأصْوات.. أصواتُ الفُقَهاء في جلْسة "سْلْكَة"..

أصواتُ الحُجَّاج في البيتِ الحْرام..

أصواتٌ جنائِزِيَّةٌ تَمْتَصُّها أعْمَاقُه كما تَسْتَنْشِقُ الخياشِيم عَبَقَ تُراب صباحِي ندِيٍّ.. وقام الحاج من مكانه مَشْدُوهاً وفي يدِه المصْحف.. وربما

خرج من المسْجد دون أن يَنْتَعِلَ حذاءَه.. لقد انْفَتَحَ أمامه صِراطٌ روحانِيٌّ كبيرٌ.. كبيرٌ.. كبيرٌ.. لا يُضاهِيه كِبَراً إلا اتِّسَاع عينيه الكبير الكبير.. و"عَلَّال التِنِسْ" يهْمِس في أذُنَيه بكلامٍ كبيرٍ.. كبيرٍ.. كبيرٍ.. كلماتٌ انْحَفَرَت مسامير في وُجدان الحاج المُسْلم المُسَلِّم المسَالِم المسْتَسْلِم.

***

منذ أيْقَن الحاج أنَّ النبي زاره في المَنَام وأقمار عوالِمِه الروحانيَّة مُسْتَيْقِظة، طال شعرُه، اسْتَطَالت أظْفارُه، وأهمَلَ هِنْدَامه، وتحوَّل بيته إلى مَقْصِدٍ للفقراء والمُعْدمين والرثِّين والمُذعِنين والمُتَثَائِبين والنازِحين والمُهَجَّرين والمَرْضى والحَمْقى والفُضُوليين والمُتَطَفِّلين والبَكَّائِين.. .

حَجَّتْ إلى مَقَامِه نِسْوةٌ كثيراتٌ يَحْملن الدجاج والديكَة والأرانِب والحَمَام والبَيض والسكَّر والتَّمر.. وذاع صيْتُه بين العِباد، واشْتُهِرت كراماتُه، وعُرِف بالصلاح والوَرَع وحُسْن السِيرة.

وفي خُلْوتِه لا شيء سوى الحصِير والماء، ووَسَطَ المقَام مِنْضَدة عليها ثوبٌ أخضر ملْفُوف بدِيبَاج مُذهَّب مُطرَّز وُضِع عليه صُندوقٌ من فِضَّة مُتوسِّط الحجم، فيه زُجاجة صغيرةٌ بِداخِلها شعْرةٌ يتِيمةٌ تَسْبح

وسَطَ ماءٍ زَعَمَ صاحب المَقَام أنه ماءُ زَمْزَم، وأنَّ الشَّعْرة هي شَعْرَة النبِي..

وفي كل مرَّة كان الشيخ يَسْكُب الماء في قدْح نُحاسي صدِئٍ ويَسْقِي ضُيوفه مِن المرضى والمْمْسُوسِين ومِمَّنْ عاكَسَهم الحظ أوِ اسْتَسْلموا لِلْيأس والفشل، والمْحْزُونين مِمَّن لَسَعَتْهُم الحياة بِلَهِيبِها.. ومَنْ وَجَدَ الشيخ الحاج في قلبِه قَسَاوَةً واْستعْصى عليه عِلاجه كان يُرَقِّيه بالماء المبارك أو يَصِف له وَصْفَةَ كِتابة سورة يَسٍ عشْرَ مرَّات بالماء المبارَك والزَّعْفَران.

***

توقَّفَتْ شاحنةٌ أمام مَزَارِ الشيخ. وتوقَّف مُحرك الشاحنة وأطْبَقَ الظلام والصمت على المكان. القمر المُعلق في السماء يظهر كفَتْحَةِ بِئْرٍ والمدينة راقِدةٌ نائمةٌ في قَعْرِهِ..

تَرَجَّلَ السائق الملْتَحِيُّ من مَقْصُورَةِ القِيَادَة، رجلٌ في عِقْدِه الرابع لِحْيته تكاد تُلامِس سُرَّته، السبْحَةُ بين أصابِعه، والشَّعْر يكْسُو رِجْلَيه اللَّتين انْحَسَر عنهُما جلْبَابه القصيرُ. ربَطَ أنْبُوبا طويلا بصُنْبُورٍ في حاويَّة

كبيرةٍ يحْمِلها على متْن الشاحِنة وفتح الصُنبُور لِيَمْلأ براميلَ كبيرةٍ في الفنَاء الخارجي لِمَزار الشيخ..

حين أفْرَغ المُلْتحي حُمُولته، اقْتَحَم خُلْوة الشيخ وجلس القُرْفُصَاءَ إليه.. لم يَنْبِس أحدُهما بِبِنْتِ شَفةٍ، وطوال الوقت انْشَغَل الشيخ بالتَّسْبيح وانْشغَل الملتَحِي بالتفْكير في أحواله وقد بدَا شارداً مهْمُوما كَظِيمَ الوجه، والتَقَتْ نظراتُه أكثرَ مِن مرَّةٍ بنظراتِ الشيخ لتِقُول الشيء الكثيرَ..

الحاجُّ يَعْرِف أن زائِرَه ينْتَظِر أُجْرَتَه مُقابل الماءِ المبارك الذي يأتي به. الملْتَحِي يَدَّعِي أنه ماءُ زمْزَم، ولا حاجة لأنْ يُغْلِظَ الأيْمَان فالحاجُّ مُسْلِم مُسَلِّم مُسالِمٌ مُسْتَسْلِمٌ ونظراتُه في كل مرَّة تِشِي بالارْتِياح التامِّ لِضَيفه.. هذا الأخيرُ الذي تحوَّلَتْ نظراتُه إلى الزجاجة في الصندوق الفِضي على الثَّوب الأخْضر.. وكأن نظراتُه المُرْتَابَة تتساءَل عن حقيقة الشَعْرةِ؟ !!

وحين تَلْتَقِي العيونُ، يُوقِن المُلتحي أَنَّ الحاجَّ صادقٌ جدّاً، على الأقل مع نفسِه، وحين يَنْفَحُه بالأوراق النقدِية دون التأكُّد من عدِّها

وبِكرم بالغٍ يقْطَع الملْتَحِي الشكَّ باليقِين ويَسْتَشْعِر قُدْسية المكان ويُؤَنِّبُه ضميرُه على ادِّعَائه المسْتَمر أنَّ الماءَ ماءُ زَمْزم.. وتُوجِعُه نظراتُ الحاجِّ المُسالِمَة المُسلِّمةِ الرَّاضِيَة المَرْضِية. ويحَارُ الملْتَحي المُكْفَهِر الوجه من أين سيبْدَأ..

وفي قرارة الحاج أنَّ هذا الرجل ابْنُ ناسٍ، شخصٌ طيِّبٌ، نظراتُه تفْضَحه، تقول كلَّ شيءٍ، تقولُ أنَّ هناك ما يُعذِّبُه.

ويشعُر الملْتَحي أمام نظراتِ الحاج المُتَفَحِّصة بارْتِباك شديدٍ ويُوقِن أن مُصيبَةً كُبرى ستَحِلُّ به إنْ هو لم يَعْتَرِف للشيْخ بأنَّ مصْدر الماء السَّاقية بِضواحِي المدينة..

حَوْقَلَ ولعن الشيطان الرجيمَ في أعماق نفْسه، وفكَّر في النهاية أنَّ الأجر الذي يَتَلَقَّاهُ من الشيخ مُكافأة مُسْتحَقَّة، فالحاج المُطْمَئِن يشتري راحةً نفسِيَّة لا تُقَدر بثمنٍ والناس الذين يَقْصِدون المقَام سَبَقَ وقرَأَ السعادَة على وُجُوهِهِم.. إنه يبِيعُهم الوَهْم، ولكنَّه الوهْمُ الذي يصْنع الفرحَ، وما الفرح إلا وَهْمٌ.. وهْمٌ لن تجده لدى الدول المُصَنِّعة الكبرى.. وَهْمٌ كان يُمَنِّي نفْسهُ به، لكنه لا يعرف كيف يُخْلِص النيَّةَ..

يَحْسُد الذين يَخْرُجون من عند الشيخ وعلى وجُوهِهم الابْتِسام والانْشِراح ويَتُوقُ لِلَحْظة راحةٍ مع نفسِه.

***

تبدو شعرةً عاديَّة جدّاً.. حتى مع وجُود أبْخِرة وآيات قُرآنية مَنْقوشة على الحائط، تبْدُو شعْرةً عاديَّة جدّاً، لكنَّ الهَالَة المُحيطة بها وأثَرها النفسي يَفْعَل الأعاجِيب..

يُعِيدُ البَسْمة لِلْعوانِس، ويُثْلج قلوب الأرامِلِ والمطلَّقاتِ والثَكَالى ويَبْعَثُ الأمل في المعَطَّلين والمنْكُوبين والمتْعَبين واليائِسين والمتشَائِمِين، ويَضُخُّ الروح في المُنْهارين والمُتَثَائِبين والمُتَخَاذِلين والمُمْتَعِضِين والمُتَبَرِّمِين.. يُلِين قُلوب القُساةِ مِن المُتحَجِّرين ويَبعَث بَصِيصَ نُورٍ في كُهوف النفُوس المُدْلهِمَّة.. هل يستطيع الشيخ أنْ يُشْعِل قَبَساً في رُوحه المُعذَّبة؟ أيَقْدِر أن يَهَبَهُ السكِينة والطمأنِينَة التي فَقَدَها منذ ذلِك الحادِث المشؤُوم؟

لماذا لا يصدِّق الملْتَحِي الشَّيْخَ.. ؟ ألم يشهدِ النَّاس من قبل أنه عالج طفلاً يَئِنُّ ويَئِنُّ.. بسبب الكمَّاشة المغْروسة بين اللّحم والعظْم؟

يَئِن ويَئِن ويَئِن ويَئِن.. وبِلَمسةٍ سحْرِيَّة من يدِ الحاجِّ المبارك عاد الطفل إلى اللَّعب والابْتِسام وتوقَّف نزِيفُه وخرجتْ أمُّه تَلْهَجُ بالدعوات القَلْبِيَّة الصادِقة للشَّيخ المبارك..

وكان الملتحي قد عَزَمَ على الفَضْفَضَةِ للشيخ بِنوازِعِ نفسِه الأمَّارة بالسُّوء، لكنَّه تردَّد قليلاً حين تذكر أن أغْلب عِلاجات الشيخ تَتِم بالماء المُغْشُوش، ومن شُروط العلاج أن يعتقد بأن الماءَ زَمْزَمِي المُنْبَعِ..

في تلك اللحظة الْتَقَتْ عيْنَا الملْتَحِي من جديدٍ بِعيْنَي الشيخ وشَعَرَ بالحرَج والخجل وتَبْكِيتِ الضمير وقالتْ له نظرات الحاج المُشْفِقَة الطيبة فَوِّضْ أمْرك إلى الله وأَخْلِصِ النيَّةَ..

وكَأَنَّ لِلْأبْخِرة التي تَصاعَدت مفعُولَ السِّحْر فقد غَامَتِ الدنيا في عيْنَي الملْتَحِي وتَرَقْرَقَتْ عيْنَاه دمعاً وفُكَّتْ عُقْدَةُ لِسانه وانْطلق يَتَخَفَّفُ من الثِّقل الذي يَجْثُمُ على صدره، كان يحكي ويَشْهَق نحِيباً، ورغم أنه كان يبدو صادقاً جدّاً فإن الشيخ لم يَسْتطِع أن يُمَيِّز الكثير من حَكْيه، اللهم ما ذكرَه عن ليْلَةٍ سقْفُ سمائِها واطيءٌ جدّاً..

ليلةُ بكاءٍ..

وماءٌ..

وترابٌ..

وأغْلالٌ..

ليلةَ هوى بِفأْسه..

بِرْكةُ دِماءٍ..

وحاول إخْفاء جريمتِه، لكن قَلْبَ الوادِي كان يَدُقُّ..

أخْطَأَ الإصابَةَ، وأحياناً الخطأُ لا يُعالَجُ إلا بِخَطأ أكثرَ فداحةٍ..

واسْتبَدَّ النَّحِيبُ بالرَّجُل ولم يستَطِع مُتابعةَ اعْتِرافاتِه فَطَبْطَبَ الشيخ على كتفِه ومسح رأسَه بِحُنوٍّ إلى أنْ هدأَ قليلاً ثم قام وأخرج من أسفل المِنْضَدَةِ عُبْوةَ ماءٍ وقدَّمها له وهَمَس في أذُنِه:

- إنه ماءٌ غيرُ الماء الذي تبِيعُني، هو ماءُ زمْزَم حقِيقي أحْضَرتُه بنفسي من المَقَام الشريف، اخْلطْه بالماء الذي تسْتَحِمُّ به وفي كل مرَّة أعِدْ تَعْبِئة القِنِّينَة من نفْس الماء الذي تَسْتَحِمُّ به لِسَبْع مرات وسَتَتَطَهَّر في كلِّ مرَّةٍ من شُرورك وآثامِك حتى يُصبِح بياض روحِك أسْطع من بياض ثوبٍ حلِيبـيٍّ.

الـــفـــخ

هَا أنا في ساحة المدينة.. . رقمٌ أهمُّ منه أرقامُ أوراق لعْبة القمَار المتَنَاثِرة.. أمْسَح الساحة بنظراتِي.. وأتجَوَّل بين المقاهي.. أنْهَيْتُ لِتوي كتابة نصٍّ عن الدجاج والديكَة والثعالِب، نصٌّ شَطَبْتُ فيه الكثير من المقاطِع، وحين أتْعَبَني الرقيب بداخلي بإمْلاءَاتِه جَمَعْت الأوراق وأفْردْتُ الجريدة أمامي أقْرَؤُها ومن حينٍ إلى آخر أرْتَشِفُ كأس القهوة أمامي.. أعُدُّ الدريْهمات التي في جيْبِي وأحاول أن أصنَع الرفاهية بهاتِفي المسطَّح الشَّاشة ونظَّاراتي الشمسية وعلبة سجائري والمفاتيح التي أضعُها على الطاولة، وها أنا أجْلِس وقد وَضْعتُ رِجْلاً على رِجْل.. الطفل ماسح الأحذية يعْرِض عليَّ خَدَماتِه المجَّانية، في البداية رفَضْتُ لكنْ أمام إلحَاحِه ورغْبَتِه في تلْمِيع حِذائي بِدون مُقابل اسْتَسْلَمْتُ للُطْفه الشديد، لُطْفٌ لا يمكن أن تجِده عند الذين يسْتَقْبِلونك في المكاتِب المكيَّفة بربَطَات عنقٍ وأحذيَّة ملمَّعةٍ.. آهٍ كم طرقْتُ من أبواب !! لا وجهَ إلا وَجْه البِطالة البَشِع ووجهُ أمي الحزين نِهاية اليوم..

ووَجْه "عْبِيرُّوش" يتَطَلَّع إليَّ من أسفل، إنَّ هذا الطفل عادةً ما يَبْعثُ فيَّ الأمل، فحين أرى سُحْنته البئِيسَة أفْهمُ أنَّني أحسن حالاً، "بِطَالِيٌّ" وبِخَيْر.. يتَطَلَّع إليَّ "عْبِيرُّوش" ويُناولُني ورقةً نقديَّة يُريد أن اقْرأَ له ما كُتِب عليها.. وأخيراً هناك شخصٌ يطلبُ خدَمَاتي؟! لكنَّ الأمر يُبْكيني، كيف لهذا "الجَرْبُوع" أن يملِك ورقةً نقديَّة لا أملِك رُبْعَها إلا بعدَ أنْ أبكِي الدمَ على أمِّي الحنونة وأقُدَّها من مَعِيشَتِها الضنْكَة قدّا؟ عَبَثا أُسَلِّي نفْسي بأمور كثيرة تافهة، المسْتَوى التعليمي الذي بلَغْتُه، سهرُ الليل كُله أمام شاشة الحاسُوب، الجلوسُ في المقاهي، مُشاهدةُ المباريات.. ولقاءُ "خَنْدُوشَة".. آهٍ "خَنْدُوشَة" وحدَها تكفي لِتُزِيل الغُمَّة عن جيلٍ بأكْمَلِه مِن مُكْفَهِرِّي الأفُق..

في الوقت الذي كُنْتُ أَشْترك مع أسرتي سقْف الغُرف الطينيَة، كُنَّا نشْترك أنا و"خَنْدُوشَة" سماءَ البيت، فلم يكُن يَفْصِل منزِلَهم عن منْزِلِنا إلا حائطٌ. حائطٌ أعْزَل يقف حاجزاً بين مَنْزِلين بِنفْس المُواصفات، نشْتَرِك السماء والفقر ونسمع أصواتَهُم ويسمعون لغَطَنا، وكان لِمَنْزِلنا باب يَنْفَتِح على الشارع ولهُم بابٌ يَنْفَتِح على الزقاق الخَلْفِي الصغير.. وعِشْتُ معها طفُولَتَها وواقعها ولم يكن يَمُرُّ يوم دون أن

نَسْمَع سبَابَ والِدِها المُقذِع وهو ينعَتُها وأمَّها بأشدِّ الألفاظ إهانةً للإنسانية، كان فمُه أشْبَه بثُقْب مرحاضِ سوقٍ.

لا زال هناك أمر يَحِزُّ في نفسي، هل أخْبِر "خَنْدُوشَة" في اللقاء القادم به أم لا؟؟

-نعم أم لا؟

-مَا فْهَمْتْ؟

-جَاوْبْ يَا رَاسْ الطَارُّو، فِينْ عَمْرَكْ غَتْفْهَمْ

-نعم

و وَرَّطَنِي "عْبِيرُّوش" فقد كنْتُ حسمْتُ أمري أن أقْطَع عِرقَ التردُّد وأقبَلَ إجَابَتَه كيفما كانتْ، سأخْبِرها أنني جارُها الذي يعْرِف عنها كلَّ شيءٍ، جارُها الذي اسْتَغَلَّ وضعَهَا المأزُوم حين كانت ثائِرةُ الأب العَصَبي تَثُور فيُكَسِّر الأواني ويُحَطِّم الأثاث ويَطْرُدُها وأمها خارج البيت، جارُها الذي تَلَصَّصَ على واقِعها المَوْبُوء وعرف أن الرجل المنهزم الذي يَعْتبِرونه أباً، كان يضعُف أمام الحاجة والعَوَزِ، حين يجوع

يثورُ، حين يُحْرم يثورُ، حين لا يدخِّن يثورُ، حين يُسْحَقُ تحت الدُيُون يثُورُ،، وهكذا كان يَدْفَعُهُمَا دفعاً نحو الشارع ودُون أن يقُولَ..

عليه أن يقولَ لِـ"خَنْدُوشَة" كلَّ شيءٍ.. لن تَتَأَلَّمَ أكثر، فهناك أشياءٌ أكثرَ إيلاماً في هذِه الحياة.. سيقُول لها كلاماً جميلاً يُنْسِيها غَطْرسَة أبيها، ستحْكي له هي نفْسُها عن أحوالِها.. سيذُوب الألمُ في الأمَل وسيحْضُن فيها شيئاً ينْبَثِق من روحٍ داخل روحِه.

أحُثُّ الخُطا أسارِع قبل أن يَتَغَيَّر لون الأفُق، ومن بين شُرُفات سور المدينة كانتِ الشَّمس تغْمِز بعينيها مُتواطِئة مُنْدفِعة مع مشاعري المتَوَثِّبة.. درَّاجَاتٌ تُسابِق الريح، شخصٌ يتبوَّل على جَنَبَات السور العريق، كِدْت أتوجَّه نحوه.. تَخَيَّلْته يتبوَّل على شخصٍ مُسِنٍّ ضعيف مُنْكَمِشٍ على نفْسِه وقد فعَلَتِ السِنُونُ فِعْلَها في جسدِه.. شخصٌ يتبوَّل على سورٍ عريق، مشهدٌ عادٍ ومألوفٌ في هذه المدينة، كيف لِشخْص درجة خامسة ومُهَمَّشٌ ومُقَزَّمٌ بطريقةٍ خطيرةٍ جدّاً كما قال لي صديقي "البشير" أن يفهم أنَّ السور جَدٌّ عجوزٌ تَغَضَّنَ جَسَدُه بِعددِ السنين التي مرَّتْ؟؟ !!

و وَجدْتُ "خَنْدُوشَة" الجميلة المُخلِصة تنتَظِرني، صعِدْنا دَرَجات السور لِنَعْتلي الباب التاريخي، ولِنَشْعُر أنَّنا مَلِكٌ وملِكة، ولِنَقِف أمام هذه المدينة التي أرى الآن أُنَاسها نَبَضَات قلبٍ يَضُجُّ بالحياة، مَصَابيحُ تلوح من كلِّ مكان، والشمس تضحك، تَشَابَكَتْ أصابعُنا، انْتَفَضَتْ "خَنْدُوشَة" كانتْ تخاف من الأعْيُن التي تُحَاكِمها بِجُرم لم يُرْتَكَب.. ذكَّرتُها أنها ملِكةٌ والملِكاتُ لا يَخَفْن.. مالتِ الشَّمس نحو المُغِيب أكثر واصْطَبَغَ طُوب السور باللَّون الدَّاكِن. كان الجوُّ ساحراً تزِيدُه أسرابُ السُنُونُو روعةً، لولا أنَّه جَاءَ..

وكأنَّه على موعد معنا.. رَكَنَ درَّاجته وقَبْل أن يصعد رأى في لَحْظة خاطِفة اصْطِدام طائِرَيْ سُنونُو في السماء، وسَرَتْ شرارةٌ بين أسلاك أعمِدة الكهرباء.. وَصَعِدَ..

للسُّور سُلَّمٌ واحدٌ.. وها هو يَصْعدُ ونحن بانْتِظاره. أمْسكْت بِكَفِّ "خَنْدُوشَة" وضَمَمْتُ على أصابِعِها أكثر.. اقْتَرَب منَّا ولِبَاسُه الأمني والنيَاشِين على كتِفَيْه تزِيدُه ثِقَة، وقف أمامَنا وعلى وجْهِه ابتسامةُ المُنتصِر وكأنَّه وَقعَ على صيدٍ ثمينٍ، وجَذَبَنِي من كتِفِي بِعُنف..

الصمُود.. الصمُود.. الصمُود.. كَقَرْعِ طَبْلٍ ضخمٍ رنَّتْ هذِه الكلمة في داخلي. أحَسَّ الشرطي أن كَتِفِي مِثل شُرْفَةٍ مِن الشرُفَات العتيقَة العتِيدة للسُّور، لا تتَزَحْزَح عن مكانِها قيدَ أنْمُلَةٍ، اعتبر الأمر تحديّاً صارِخاً.. وضع يدَه خَلفَه وبِحركةٍ خاطِفة أطْبَقَ على رُسْغِي مُطوِّقاً إيَّاهُ بأصْفَاد حديدِية غليظة، "خَنْدُوشَة" هي الأخرى فُوجِئت بيدِها المَتَشَبِّثَةِ بيدي تُقَيَّد. لقد أحْكَم الشرطيِ وثَاقَنا بقيدٍ غليظ، كأنَّه فَطِن إلى أنَّنا يمكن أن نفْتَرق وحينها سيصْعُب عليه أن يُثْبِت "الجريمة" التي ينْوي إلْصاقَها بنا.. سيَعْتَبِر لِقاءنا خَدْشاً لِلْحياء العام.

الحياء العام زجاج رقِيعٌ شفَّاف، لا يُرى، أرَقُّ مِن الخيال، تَجْرحُه الأصوات، النظرات، الهمسات، القُبُلات، وهو نفسُه -الحياءُ العامُّ- واجِهة قَصْدِيرية لا تَنَال منها طعناتُ الجوع، الألم، الحُكْرة، الظلم، الدموع.. . نَزَعْتُ يدي من الشرطي والأصْفاد تُطوِّقني إلى "خَنْدُوَشة" وأرْسلتُ نظرة حادَّة للشرطي، نظرتِي وحدها هزَّتْه من مكانِه.. وكأنَّ شُحْنة لامَرْئِية، لا تَفُكُّ شيفْرتَها إلا العيون سَرَتْ بيننا، وانتَقلتُ من وَضْع الدفاع إلى وَضْع الهجوم، وأنا أحاول إزاحَتَه عن طريقِنا والرد على إساءَته المتعمَّدة، اهتزَّ جِسمُه الثقيل وفي لحظةِ ارْتِباكٍ وتوتُّر وقع ما لم

يكن في الحُسبان، المكان كان أضْيَق من أنْ يتَحَمَّل معركة مشحُونة، وفي لحظةٍ ما، زَلَّتْ قدم الشرطي وتَنَاثَرَ بعضُ التراب الهشِّ عن حافة السور، وحاول أنْ يَتَمَسَّك بأيِّ شيءٍ لكن الفراغ احْتَضَن جُثَّته المُتَهَاوية. وهوى مِن فوق السور..

وألْقينا نظرةً على جسدِه المتكَوِّم المضَرَّج في دِمائه.. كانتِ الشَّمس قدِ اخْتفتْ تاركةً لنا مصِيرا آخر.. وأجْهَشَتْ "خَنْدُوشَة" عَلى صدري، وقبل أن يَتَحَلَّق الناس حول جُثة الشرطي كُنتُ قد سَحَبْتُ "خَنْدُوشَة" وابتَعدنا.. أزالتْ وِشاحَها وأخْفتْ به الأصْفاد التي تُطَوِّق يدينا.. سألتُها:

- ما العمل؟.

- لِنَتَّصِل بصديق.

- للأسف الهاتف النقَّال غير مشحُون..

هل يمكن أن نسِير في شوارع هذه المدينة جنباً إلى جنبٍ كعاشِقَين ذِراعُها في ذراعي؟ إننا مهدَّدان في أيِّ لحظةٍ بِمُطاردة هولْيُودية، إنها مدينةٌ تطارد العشَّاق في الزوايا، تحت الأشجار، خلف البِنايات، في

المقاهي، في الحدائِق.. ومَشَيْنا تَحْرِقُنا العيون، تَلُوكُنا الألْسُن.. تُلاحِقُنا اللَّعَنَات.. احْتدَّ النقَاش بيْني وبين "خَنْدُوشَة" لأول مرَّة.. كلُّ واحدٍ منَّا يطلب الخلاص لِنَفْسه.. صرخْتُ في وجهها.. صرخَتْ في وجهي. تَناسَيْنا في لحظةٍ أَنَّنا في مدينةٍ يتعلَّم أطفالُها أن الحبَّ رذِيلةٌ.. المدينة التي إذا أرادَتْ أنْ تُنكِّلَ بِسُفَهَائِها سلَّطَت عليهِم أطفالَهَا.. وتناهَتْ إلى مسامِعنا صَيحَات عصابةٍ من الأطفالِ:

-"وَطْلَقْ الدْجَاجَة الْمَّالِيهَا، لاَ تْبِيَّضْ وْ تُوحَلْ فِيهَا"..

وازْدَادَتِ الصيحات هياجاً ولَفَتَ الأمر الانْتِباه إلينا وكأنَّنا وَسَطَ دائرة ضوءٍ وسَط مسْرح كبيرٍ مظلم، والعيون تَقْدَحُ نحونا ناراً.. أسرَعْنا الخُطَا.. هَرْوَلْنَا.. عَدَوْنا.. مِزاح الأطفال الثقيل يتحوَّل إلى كابوسٍ مرعبٍ.. سيَّارات الأجْرة ترفُض التوقُّف.. هناك شاحنةٌ على وَشَكِ الانطِلاق.. انْسَاقَتْ "خَنْدُوشَة" ورائي.. صَعِدْتُ أولا إلى الشاحنة الْمُنطلِقة، وسَحَبْتُ ورائي "خَنْدُوشَة" قبل أنْ تَقَع في فخ الأطفال المشاغِبين.

داخِل الشَّاحنة خزَّان ماء ورَفْشٌ وفأسٌ، وبقايا ذرَّات الرمال.. اسْتَلقَيْنا وقد هدَّنا التعَب، لا ندري أين أوْقَعَنا حظُّنا العاثِر.. الشاحنة تنطلِق بسرعةٍ وقد شَقَّت طريقها نحو المجهول.. والمدينة الفخُّ تبْتعِدُ، نعِيُش تحت أضْراسِ فَكَّيها الكبِيرين، المضْغُ مستمِر تحت أضْراسِ وأنْياب الفَقْر والمرض والحِرْمان واليأس والجهل والحقد والكَبْتِ والتَزَمُّتِ.. تموتُ فينا أشياءٌ كثيرة، وتَنْقَلِب حيواتُنا وتتَمَزَّق أمانِينا.. هل المدينة وحشٌ؟ ! أم نحن الوحشُ؟ !!

انْتَقَلتْ عجلات الشاحنة إلى طريقٍ وعْرَة، ومالتْ "خَنْدُوشَة" عليَّ بِجسدِها الأنثوي والْتَصَقْنا بشدَّة ولَمَسَتْ شفتاي وَجْنَتَيْها، وتذوَّقْتُ طَعْم مُلُوحةٍ تسِيل على خدَّيها.. يبدو أنها تبكي منذ وقتٍ طويل وأنَّ روحَها تَنْزِف منذ انْطَلَقتِ الشاحنة.. لم نكُن نتحمَّل هذا الانْدِغَام بين فكَّين لا يرحمان.. وعُدتُ أسأل: ما العمل؟ لكن لا جواب..

توقَّفتِ الشاحنة وسط خلاءٍ شاسع.. توقَّف مُحرِّك الشاحنة وأطْبَقَ الظلام والصمت على المكان. القمر المُعلَّق في السماء يظهر كفتحةِ بِئْر ونحن في قَعْره.. عَقَدْنا الأمل على السائِق الذي ترجَّلَ من مَقْصُورة القيَّادة.. عَلَّهُ ابن ناسٍ، شخصٌ طيِّب، مُتفهِّم، سنحكي له كل شيءٍ

وسيُساعِدنا.. سيفُكُّ أسْرنا.. سَيبلُّ حلُوقَنا الظمْآى، ولِمَ لا؟؟ قد يوفِّر لنا المأْكَل والمأوى، وينقُلنا إلى مكانٍ آمِن.. سيتَستَّر على "فضيحتِنا" ووو..

وانْتظرْنا دهرا وأنْفَاسنا مشدودةٌ والأصْفَاد قد أَدْمَتْ مِعْصَمَيْنا.. الليل جُبٌّ عميقٌ وننتظِر وجهاً قمريّاً يمْسَح الأسى عن سُحْنَتَيْنا.. وأخيراً أطَلَّ بوجهه علينا.. وكان آخر مَنْ يُمكن أن نتوقَّعه.. هل يُشفِق لحالِنا؟؟ ! هل يتعاطَف معنا؟ !!

صمتٌ طويل خيَّم بينْنَا وقد عَقَدَتِ المفاجأة ألْسِنَتَنا، هو أيضا كان أشد دهشة ورعباً، أحْسَسْنا بِفرائِصِه ترتَعِد تحت جِلبابه القصير.. وجهه المُحاط بِلِحيَة طويلة أجَّجَ مخاوِفَنا.. عَقَدَ ما بين حاجبيه فانْعَقَدت الغُصَصُ في حلْقِي.. حاولْتُ أن أتَمَلَّص من خوفي وأن أنْفُض التشاؤُم عن نفسي. المُلتحي إنسانٌ.. رجلٌ خَلُوقٌ.. يُؤْثِر الخير.. يُحِب الله ورسوله.. إنه ليس شيطانا رجِيما كما يُصوِّره الإعلام العمِيل، هو في النهاية الأخ والصَدِيق والجار والمُعين والكريم.. إنه إنسانٌ له أبناءٌ ووالدَان، وهو يعيش في مجتَمعِنا ويعْرِف الإكراهات ومشاكِل الواقع..

لا شكَّ أنه كان يوما نَزِقاً وهو أكِيد يعرِفُ أنَّ باب التوبَة مفتوحٌ، كم أرجو أن يكونَ المُنقِذ الذي انتَظَرْناه..

حَوْقَل وضرب كفّاً بكفٍّ وهو يسمع استِعْطافَنا وبُكاء "خَنْدُوشَة".. كنَّا نَسْتَنْجِد به ولم يَكُن له من جوابٍ غير الحَوْقَلَة.. كنَّا نصرُخُ ونبكي ولم يكُن له مِن رَدٍّ غير الحَوْقَلَة.. أحْسَسْت أنه يعيشُ صِراعاً داخِليا مُمِضّاً، وانتظرْتُ الأسْوأَ.. لم يفعَلِ الملتَحِي شيئا.. غير أنه أخْرَج سُبْحَتَه وظل يُدِيرها بين يديه ويمشي يَمْنة ويَسْرةً دون أن يتَّخِذ قراراً يُريحُه ويُريحُنا.. توجَّه نحو القِبْلَة وصلَّى ركْعَتين وكأنَّه يَسْتَخِير الله في قرارٍ مُبَيَّت اتَّخذَه مع نفسِه..

قَدِم بخطوات ثابِتةٍ تُنْبِئ أنه حَسَمَ أمره، ساعدنا على النزُول من الشاحنة، وطلَب منَّا أن نسِير إلى صخرة ضخمة تقعُ على بُعْد خطَوات.. أتُرَاه سَيَسْتَقِل شاحنته وينصرف مُتخلِّصا من هَمٍّ وجدَه فجأة على ظهْره؟ هل سيدْفُنُنا بين أحجار الوادي المهجُور؟؟ فكَّرتُ أن أَجُرَّ "خَنْدُوشَة" ورائي ونَخْتفي في ظُلمات هذا الوادي.. لكن الملْتحِي ضخمُ الجثَّة تعوَّد مَلْأَ ظهر شاحنته بأحجارِ ورمالِ الوادي، فأيُّ قوَّة

يملِكها هذا الجبل الذي يُصارِع جبالا من الرَّمل المِلِئ بالأحجار الصَّلْدَة؟..

ولم نَنْتظر هذه المرة طويلا فقد عاد الرجل المْلْتَحِي وفي يدِه يلْمَع نَصْل فأس..

تجمَّدتِ الدماء في عُروقِنا وتَمَنَّيت أن أستيقِظ وأجِد الأمر مُجرد كابوس.. وتردَّد هُتاف بِداخِلي: استيقِظ.. استيقِظ.. استيقِظ..

تردَّدَ الهُتاف بينما الخطوات تقْترِب.. تقْترِب.. تقْتَرِب..

وأشاحتْ "خَنْدُوشَة" بَوَجهها بعيداً.. وأشَحْتُ بوجْهي أبْعَد.. وتباعَدنا وكلُّ واحدٍ منَّا يُريد أن يَفِرَّ في الاتجاه المُعاكس للآخر..

الكابُوس يأْبَى إلا أن يكون حقيقة.. وصوتُه يُجَلجِل في المكان مُكَسِّرا غُيوم الوهم التي عَبَثا أحاول أن ألُوذ بِها.. وفي عقلي الباطِن تزاحَمَتِ الأصوات وميَّزْتُ من بينها صوت آذانٍ حُلْوٍ.. كأنَّه تكْبِير يَصُبُّ في آذان رضيعٍ لأولِ مرَّة، وكأنَّه آذانٌ قادمٌ من أعماق الروح.. كلِمَتان تصْدَحان في الفراغ:

الله أكبر.. الله أكبر..

ولم أعُد أتذَكَّر إلا شظايا كلمات في اللحْظَة التي كانتْ جُثَّتُه تَحْجُب نور القمر ولِحْيَتُه السوداء تخْتَلِط بالظلام وتنام على صدرِهِ وصوتُه يُجَلْجِلُ في الفضاء، ولم أعُد أفْهَمُ أهو معَنَا أم ضدنا؟ !!! كل ما كنت أَعِيه في اللحظات الأخيرة أنَّ نَصْلَ الفأْس كانت تَهْوِي.. وكُنْتُ أنتظِرُ أنْ تَنْحَفِرَ في رُسْغِي أو في رسْغِها.. أو أنْ تُحَطِّم الأصفادَ اللَّعينة.

رجل الجريدة والعمود

ماذا لو تحدَّثَ العمُود القائم في رأس الشارع عند المُقْهى الذي يفْتَح واجِهتَين على شارِعين لا تَهْدأُ حركَتُهُما.. .

تعالَى العمُود واشْرأَبَّ برأسه فتدَلَّى مِنه مِصباح باهتُ الإضاءَة. كان العمود يَتُوقُ إلى الحدِيث عن بائِع "الدِيتَاي*" عِند قدمِه.. عنِ الباعَةِ المتجَوِّلِين وأصحاب العربات المجرورة و"الْفَرَّاشَة*".. عن ماسِحي الأحذية.. وعنِ المتَسَوِّلين.. وعن المَارَّة.. وعنْ رُوَّاد المطاعِم والمقاهي.. وعنِ الشابِّ كاتب قصَّة الدجاج كلَّما جَفَّت محْبَرة خيالِه تطلَّع إلى الأعلى بِإمْعان، يَحْسِبُ أنْ لم يَرَه العمود. يَحْسِبُ أن لا أحد يُشاطِره حُرْقَةَ الكتابة. وغير بعيدٍ مِنه رجلٌ أربعِينيٌّ تعوَّدَ الجلوس على بُعْد خطوات من العمود طَوَال النهار وإلى وقْتٍ مُتأخِّر من اللَّيل. كم يُشْبِهُه هذا الرجل.. طويلٌ مثلُه. جامدٌ مثلُه. صامتٌ مثلُه. مثلُه مِثلُه.

* – الديتاي: بائع السجائر بالتقسيط.

*– الفرَّاشَة: الباعة المتجولون الذين يفترشون الشارع ببضاعتهم.

ماذا لو تحدَّث العمُود القائمُ في رأس الشَّارع عن هذا الرجل.. يأتِي كل صباح، يقْرأ الجريدةَ، يشربُ قهوةً سوداءَ، يدخِّن بِشرَاهة، ينظُر بامْتِعَاض إلى الناس ويَمُطُّ شفتَيْه ضيْقاً ممَّا يسمعُه.. يُتابِع حركةَ الشارِع، السياراتُ، الواجهاتُ، اللاَّفِتاتُ، المُؤَخِّراتُ.. .

العمودُ القائِم على بُعْدِ خطوات من هذا الرجل نَمَتْ بينَهُ وبين الرَّجُل أُلْفَةٌ غريبةٌ، فهو يُشاطِرُه نفسَ الإحساسِ. يَتُوقُ الرجل دائما إلى القيام بِحركة عكْس توقُّعاتِه، إنَّما لا يستطِيع.. يَوَدُّ لو يَعْصِفُ غاضِباً في وجه المُعَرْبِدين من السُكَارى، في وجه المُتَعَجْرِفِين المُعْجبين بأشْكالِهِم.. يَوَدُّ المسْكِين لو يُلاحِقُ الجميلات التَّائِهات، السَّاهِرات، البَاهِرات الحُسن، الضَّارِبات بالمؤَخِّرات ذات اليمِين وذات اليسارِ. يودُّ لو يُلاحِق موكِب العُرْس ويرْقُص فوق السيَّارة المُبَهْرَجَة وسَطَ دهْشةِ وفرْحةِ نساءِ ورِجالِ وأطْفال العائلة المُوَقَّرَة. يَوَدُّ لو يُلاحِق مُظاهرات الشُبَّان بالشِّعَارات السَّاخِنة لا بِعُيُونِه المُبَحْلِقَة.. يَوَدُّ لو يسيرُ جنباً إلى جنبٍ مع تلامِذَةِ وطلَبَةِ المعاهِد الدراسِيَّة. لو يَبْصِقُ في وجه عاهِرة أو عَجُوزٍ مُتَصَابِي، يَوَدُّ لو يتَحَدَّثُ فَقَطْ.

***

غَمَسَ الرجل سيجارتَه في الْمِنْفَضَة وتأمَّل العمُودَ القابِع أمامَه أبدا. تساءل الرَّجُل في قرَارَة نفْسِه عن أوْجُه الاخْتِلاف بينهُما.

يَقِفُ النهارَ كُلَّه، ويسهرُ اللَّيالي طُولها وعَرْضِها. يقْتَسِمَان الفضاء نفسَه والدخَّان نفسَه. وكلاهُما يكْتَفِي بدوْرِ الشَّاهِد على حياة الشَّارِع.. أكِيد أنَّ العمُود تَعَاطَف مع الْمُشَرَّدِين والْمُتَسَوِّلِين لكنَّه مِثله لم يُحَرِّك ساكِنا. كم يُشاطِره هذا السكُون الرهِيب! وأكِيد أنَّه مثلُه لَعَنَ قُطَّاعَ الطريق في وَضَحِ النهار وفي وَحْشَةِ اللَّيل. مثلُه آثَرَ الصمْت الْمُذِل. تساءَل الرجل مع نفسِه: ماذا لو تحَدَّثَ العمُود؟؟

***

كان السؤالُ يُزَنْزِنُ في رأسِه الأسْمَنْتِي: ماذا لو تحَدَّثَ الرجل؟ مثلُه قابِعٌ أبدا هُناك، تتبَدَّدُ أمامَه أدْخِنَةُ المطاعِم وأدْخِنَةُ السيَّارات وأدْخِنَة السجائِر.. يرى الجمِيع منْ أعلى عِلِيِّين. يَمْقُتُ تسارُعَهم. تَهَافُتَهم. تَكَالُبَهم. لا يُشارِكُهُم في شيءٍ مِمَّا يفْعلُون. مُحايِدٌ حدَّ الْموت. لا فَرْق عِنده بين من تَقَيَّأَ عِند حِذائِه، وبين مَنْ مَسَحَ مُخَاطَه أو دمْعَه عِند قدمَيْه.

***

أشْعَلَ الرجُل سيجارةً جديدةً. تأمَّلَ بِعينَين فارِغتَيْن مُتسَوِّلاً مَقْطُوعةٌ يدُه اليُمنى، يَسْتَجْدِي بِراحةِ يدِهِ الْيُسْرى. أكْمل الْمُتَسوِّل أغنيَّة الاسْتِجْداء. انصَرفَ. أشار ماسِح أحذِية إلى اسْتِعْدادِه لتلْميع حِذاء الرجُل. أشَاحَ الرجُل بِوجْهِه.

استَرَقَ النظر. اسْتَرَق السمْعَ. هؤلاء لا حدِيث لهُم إلا عن كُرة القدمِ.. كمْ هُم مُغَفَّلُون!! هؤلاء أهْل اللَّوْحِ والطباشِير لا حدِيثَ لهُم إلا عنِ الإدَارَة والوِزارَة.. كمْ هُم مُمِلُّون!! هؤلاء أهلُ الفِكر والسيَّاسة يَخْفتُ حدِيثُهم وما يَلْبَثُ أن يعْلُو.. كم هم مُزْعِجُون!!

طاوِلتُه كانت تَنْعَمُ بِهُدوءٍ مَشُوبٍ بالرَيبَة، فلَطَالَمَا نَظَرَ إليه البعْض على أنَّه مُخْبِر، ولَطَالَمَا تَنَذَّرَ بِه بعْضُهُم. أشَاحَ بِوجْهِه حين احْتكَم إليه أحدُ زُبناء الطَّاولة الْمُجاوِرة: -هل أنت مع الفريقِ الأحمر أم مع الفريقِ الأزرق؟

لم يُكَلِّف نفسَه عَنَاءَ الجواب على سُؤال أحدِهِم حين مرَّت مَسِيرةٌ احْتِجَاجِية: - أَأَنتَ معهُم أم ضِدَّهم؟

كلُّ الذين يَسْتَفْسِرُونَه عن حاجةٍ أو ساعةٍ أو مكانٍ لا يَلْقَوْنَ عِنده إلا جواباً واحداً: - لا أعرف.

في اعْتِقادِه لا أحدَ أكثر مَعرِفة مِنه. هو يَعْرِف كيف يُمكِن أن تُحَلَّ مُشكِلة البِطالة في رَمْشَة عين وكيف يُمكِن أنْ يَزْدَهِر التعليم بين عَشِيَّةٍ وضُحاها، وكيف يَنْتَظِم السَّير بِدون قانُون سَيْرٍ. صمتُه حِكمة وعدَمُ إِدْلائِه بِدلْوِه في هذا العالم الذي تَكاثَرتْ فِيه الدِلاءُ حِيادٌ إيجَابِيٌّ، ثُمَّ إنَّه لا يَسْتَجْدِي الآخَرين مِنْ أجْل الأخْذِ بِمَعُونَتِه، منْ يَعْرِفُ قِيمَته عليه أنْ يأتِيه زَحْفاً. يُفضِّل الانتِظار الأَبَدِي على الانْغِماس في حَمْأَةِ طوَاحِينَ تَطْحَنُ نَفْسَها.

***

في ذلك المساء حلَّقَت طيور السنُونُو ومَزَّقَتْ حَرَكَتُها صفَاءَ السمَاء وَرَمَشَتْ عين مِصْباح العمُود على غير العادَة. نَظرَ الرَّجُل إلى أعْلى، ثُمَّ عادَ إلى طَأْطَأَةِ رأْسِه.

لم يَسْمعْ همْس مَن هُم غير بعِيد عنه. كانُوا يُراقِبُونه طوَال الوقْت وقد تَأكَّدُوا تماماً أنَّه لا يُمْكن أن يكون إلا مُخْبِراً.

وغير بَعِيدٍ مِنهم كان آخَرُون يَخْلعُون الشكَّ ويلْبَسُون اليقِين "هذا الرَّجُل ليس مُخْبِراً مِثلَهم".

***

تَلَعْثَمَ ضوءُ مِصباح العمود، تراقَصَتْ حِبال الكهرباء، اِرْتبَكَ الشارع، مالَ العمود بِبُطْءٍ مَهِيبٍ. كان الرَّجُل يرْفَع رأسَه بِهُدوء غير عابِئٍ بالجَلَبَة حولَه. وفي اللَّحظة التي حدَّق في العمود المُتَهَاوي، كان المُشهد يَرْتَجُّ في جُمْجُمَتِه وينْتَهي.

رأس العمود مُتَهَدِّم على حافة سطْح المقْهَى.

حُطامُ كَرَاسٍ.

سائلُ القَهْوة السوداء اخْتَلَط بِسائل أَحْمرَ بأعْقاب سجائر..

والعمُود يَجْثُمُ برُكْبَتَيْه على وجْه الرَّجُل المُهَشَّم.

دموعُ السُنونو

كلُّ شيءٍ يتَسابَق.. الزمن.. النَّاس.. الصوَّر.. الدرَّاجات.. السيارات.. العرَبَات.. كلُّ شيءٍ يَتَسابقُ.. الخطَوات.. النظَراتُ.. النبَضَات.. الإنسان في هذه المدينة يَنْظُر إلى "الأمام" فيَجِدُه قد أصبح "الوَرَاء".. السرْعة في الكلامِ، في التحِية، في العمل، في الصلاةِ، في الحركَة، في التسوُّق، في الأكْل، في التبَوُّل، فِي.. .

سرعةٌ من ذَهَبٍ، سرعةٌ تعْنِي المالَ الكثيرَ، سرعةٌ تعْني الإنسان المُطْحُون المُقْهُور المُكْرَهُ المُجبَرُ اللَّامُخَيَّر، تعني الإنسان يُسَابِق نَفْسَه.. يستَيْقظ.. يغسِل.. ينْظُر إلى السَّاعة.. يَلْبَسُ.. يَجْمع أغْرَاضَه.. يبْحَثُ عنْ مِحفَظتِه.. عنِ المفَاتِيح.. يفْتَحُ الثلاَّجَة.. يُفْطِر على عَجَلٍ.. ينْظُر إلى السَّاعة.. ينْظُر إلى المرآة.. يَبْحَثُ عن رَبْطَةِ العُنُق المنَاسِبة.. يَنْظُر إلى السَّاعة.. يبْحَث عنِ الجوَارِب.. يَلْبسُ الحِذاء.. يُلَمِّعُه.. ينظُرُ إلى المرْآة،

يَنْفُضُ الْغُبَارَ عنْ كَتِفَيْه، يُصَفِّفُ شَعْرَهُ.. يَبْحَثُ عنْ هاتِفِه المُحْمُول.. يَبْحثُ عنِ المُفاتِيح مرَّةً أُخْرى..

سُرعةٌ قُصْوى.. والمدينة الدوَّامَةُ تَطْحَنُ وتَسْحَقُ الإنْسانَ، الكلُّ يُسابِقُ الْكُل.. الكُلُّ يُطارِد الْكُلَّ.. أُناسٌ يُطارِدُون "الأُطُوبيس".. و"الأُطُوبيسُ" يُطارِد المُحَطَّاتِ والمحطَّاتُ تُطاردُ المسَافِرين.. والمسافِرون يَسْتَعْجِلون النَّادِلَ.. والنَّادِلُ يَدُور بين الطَّاوِلات، يدُور ويدُور بِسرعةٍ.. بسُرعةٍ قُصْوى.. في دوَّامة.. ليْس النَّادِل وحدَه منْ يدُور، الكلُّ يدُور ويدُور وما لا يدُور لا يُعَوَّلُ عليه.. والمدينة آلةٌ عِمْلاقَةٌ تَسْحَقُ العِظامَ واللَّحْمَ والدمَاءَ والشَّعْر بِسكاكِينَ هي عَقارِبُ ساعاتٍ.. ساعاتٌ ذاتُ شفَرات حادَّة تأْتِي على الرؤُوس تَخْطِفُها، تَنْهَشُها، تَفْتَرِسُها وتسْتَمِرُّ الدوَّامةُ..

.. يُسابِقُ السَّائق نفْسَه.. وقبْل أنْ يُدِير مَفَاتِيح سيَّارتِه، يتذَكَّر أنَّه نَسِي الأوْرَاقَ والوثائِقَ الخاصَّة بالسيَّارة.. يتذَكَّرُ أنَّه سيَمُرُّ أمامَ المُدَار الوحِيد بالمدينة حيثُ الشرْطِيُّ الذي تَعَوَّدَ أن يُوقِفَه.. يَسْتَقْصِدُهُ.. يسْألُه

نفْسَ السؤال.. الشرْطِي الذي يُسارِع لِلْوُقُوفِ أمام أبْواب المدينة.. أمامَ المخارِج والمدَاخِل، وفي المُنْعَطَفَاتِ الجانِبيَّة.. الشرْطِيُّ الذي تَعَوَّد أن يكون في المكانِ المُناسب في الوقْت المناسِب، يضْبِط مُخَالفاتٍ كثيرة.. يُحَرِّر مُخالَفَاتٍ كثِيرةٍ.. يُحَرِّر محَاضِرَ كثيرةٍ وبِسُرعة كبيرةٍ، فالْوَقت الذي يُحَرِّرُ فيه مُخالَفةً ما تقَعُ فيه مُخالَفاتٌ كثيرةٌ.. أمام باب المدرسة يَضعُ الشرطي ابْنَه، على السَّاعة الثامِنة صباحاً إلا رُبْعاً وفي المْدَار الوحيد بالمدينة يكُون مُنْتَصِباً قبل أن تَدُقَّ السَّاعة..

يُسابِق السَّائق نفْسَه.. يُدِير المفاتِيح.. يَترَحَّم في لحْظةِ حُزْنٍ على الشرْطِي الذي كان يَسْتَوْقِفُه فيما مَضى، ويَسْتَقْصِدُه في رَواحِه وإيَّابِه.. هذهِ المرَّة لن يجِدَ مَنْ يُنَغِّصُ عليه مَشَاوِيره اليومِيَّة.. رَغْمَ كل شيءٍ يترَحَّم على روح الشرطي بِصِدْقٍ ومِن أعماق قَلبِه، فقد نَمَتْ بينَهُما أُلْفَةٌ غريبةٌ. الْتَقَيا مرَّتَين أو أكْثَر، في أماكِنَ مُخْتَلِفةٍ.. في الصيْدلِيَّةِ المُداوِمَة حين اضْطَرَّ كِلاهما لِلْخُروج بعد مُنْتَصف اللَّيل للْبحْث عنِ الدواء.. وفي المدرسة حين كان كِلاهُما يتَفَقَّدُ ابْنه.. ابْنُهُ الذي قال له البارِحة: ".. في

المدرسة طِفلٌ انْتَظَر طويلا وانْصرَف كلُّ التلامِيذ ولم يَبْقَ إلا هو ينْتَظِر أَباه، ولكِنَّ أَبَاه لم يَأْتِ كما تَعوَّدَ دائما"

الشرطيُّ الذي كان يُسابِق الزمنَ.. يَتبَضَّعُ.. يعْمل.. يُحَرِّرُ المُخالَفَات.. يَضْحك.. يَحْزن.. يَغْضب.. يَتَنَقَّلُ بدرَّاجته النَّارية مِن مكانٍ لآخَرَ.. يَتَّصِلُ هاتِفِيّاً.. يستَقْبِل مُكالماتٍ هاتِفية.. يُوصِل طِفْله إلى المدرسة.. يُلَبِّي طَلَبِيَّاتِ زوجَتِه.. يُسَدِّدُ الدُيونَ.. يَفْعل كلَّ شَيءٍ بِسُرعة.. ولم يُمْهِله القدَرُ.. قَضَى لحظاتٍ سرِيعةٍ.. عاش جُلَّ أوْقاتِه في الطريق.. لم يَتَوَقَّفْ لِلَحظةٍ واحِدةٍ لِتأمُّلِ السرعة في الطريق، السيارات.. الشَّاحنات.. الدرَّاجات.. الخطَوَات.. كلُّ شيءٍ يُسْرِعُ.. دقَّاتُ القلْب تُسْرع ولا وَقْت لِعَدِّها.. الدقَّات تُسْرِع.. تُسْرِع.. ثمَّ فجْأةً تتوَقَّفُ..

يُسابِق السائقُ الزمَن.. العجلاتُ تدُور وتدُور.. النبَضَات تدُقُّ وتَدُقُّ.. والثوَاني تَمْضي وتَمْضي.. قدمُه تَضْغَط أكثر وأكثر على دَوَّاسَة الوقُود لتمْضِي الطريق أكثر وأكثر.. ومِطرقةُ الزمَن لا تَرْحم، تدُقُّ الرؤُوس كما تدُقُّ المسامِيرَ.. ورؤُوس السَّاعاتِ سُيُوفٌ مَسْنُونَةٌ مَسْلُولَةٌ

على أُهْبَةِ القتْل والفَتْكِ.. أغانٍ سريعةٌ على أمواج الإذاعة.. أصواتُ أبْواقِ سياراتٍ تَحُثُّه على الإسْراع، درَّاجاتٌ تُزاحِمُه على الطريق، راجِلُون كأنهم يَتَعَمَّدُون التباطُؤَ.. إشاراتُ مُرورٍ ضوئِيَّة كأنَّها تَتَعَمَّدُ تأْخِيرهُ.

المُدَار الوحِيد بالمدينة وعلى غير المُعتاد بدون شرطيٍّ.. يَنظُر السائقُ إلى مكان الشرْطيِّ الشَّاغِر.. هل يَفْتَقِدُه؟ أين تُراهُ الآنَ؟ جثَّةٌ هامِدةٌ في برَّادَةِ الأموات.. أم وُورِيَّ التراب؟ ! لم تَمْض على موته أكثر من ليْلَةٍ واحِدةٍ.. لا يزال جِسْمُه يحْتَفِظ بِدِماءَ حمراءَ.. هلِ ازْرَقَّ جِلدُه؟!..

في لحظةِ شُرودٍ تُقَاس بالثواني فكَّر في كلِّ ذلك، وكان لِلَّحْظَةِ الخاطِفَة ثمنُها الغالي، فقد أحَسَّ بارْتِطَامٍ مُفاجِئٍ وكارثِيٍّ بِمُقِّدمة سيَّارته.. قَفَزَ قلبُه من مكانه.. قَفزَ هو من مكانِه.. وأمامَه على الخُطوطِ البيضاء لِمَرِّ الرَّاجِلين كانتْ رأسُ طِفْل تَنْزِفُ دماً أحمَرَ.. أحمَرَ.. أحمَرَ.. وتدُور الدنيا بالسَّائق، يَشعُر بالعالم غُرفةٌ حمْراءَ.. تَذَكَّر الشرْطي وافْتَقَده.. افْتَقَدَ حزْمَهُ، كَيْدَهُ، تَرَصُّدَهُ، صرامَتَه، لُطْفَه، ابتِسامَتَه..

تذَكَّر الشرطِيَّ الذي كان مِن الْمَفْروضِ أنْ يكون في الْمَدَارِ الوحِيد بالمدينة قبْل أنْ تَدُقَّ السَّاعة الثامِنة.. الشرطيُّ تعَوَّد أن يكون في نَفْس المكانِ، وكأنَّه على موعِدٍ مع أُناسٍ بِعَيْنِهم.. تعوَّدَ الإسْراعَ لِتلْبِيَّة طلَبِيَّاتٍ كثيرةٍ، أغلبُها روتِيني ويومِي وتافِه، يَدْفَعُ فواتِير الماء والكهرباء والهاتِف، يُعَرِّجُ على الْمصْبَنَة وعلى وكالة البنك وبائِعِ البيْض ويَلْتَقِي بالسمْكَرِي ويزُور الطبيبَ.. . وكثيرا ما يَنْسى مواعِيدَ أُخْرى.. وكثيراً ما تُلازِمه حالةُ شُرُودٍ.. ويُعَلِّقُ عينَيْه بالسماء وبِشُرُفَاتِ السُّور العَتِيق.. يَحْسُدُ طائرَ "السُنونُو" على سُرْعتِه وشِدَّة انْتِباهِه.. يحلم أن يَكون "سنُونُو".. بعد الموت قد يُصْبِح سنُونُو، هكذا قَرَّرَ ذاتَ عُمْرٍ حين كان يُؤْمِن بأنَّ قِراءَةَ الجرائِدِ والْمجَلات تُطِيل عُمْرَ الإنْسان.

على السُّورِ مَشْهَدٌ غيرُ مألُوفٍ بالنّسْبَة للشرطِيِّ.. مشهدٌ يُفْسِدُ عليه بَهْجَةَ الأحمَر الشفَقِي، لونُ الشفَقِ الْمخْتَلِطِ بالأحْمَرِ الطُّوبِي.. على السُّور عاشِقان، مَشهدٌ لم يَرُقْهُ بادِئ الأمر.. أوقَفَ درَّاجَتَهُ الناريَّة وعَقَدَ ما بين حاجِبَيه وهَمَّ بالصعُود أعلى السُّور، لكنَّ مَنْظَرَ زوج سُنونو أثَارَ انْتِبَاهَه.. طائران يَحِيطان السمَاء بانْسِجَام وتناغُم، وبِبَراعَةٍ تفُوقُ رقْصَةَ

زَوجٍ على الجليد.. وخَلْفَهُما اصْطَبَغَ الأُفُقُ بِلونِ الشفَقِ.. ابْتسَم الشرْطِي وعاد أدْرَاجَه واسْتَقَلَّ درَّاجَته وانْصَرَفَ..

نِكايَةً في الزمَن المُتلاطِم السريعِ لم يقَعِ الاصْطِدامُ بين طائِرَيْ السنُونُو.. لم يَتَوَرَّطِ العاشِقَان في مُطارَدَةٍ مَشْؤُومَةٍ، ولم تَهْوِ جثَّةُ الشرطِي مِن أعْلى السُّور، ولم يَنْتَظِرِ الطفْل أباهُ كثيراً.. أبُوه لم يَنَمْ في برَّادة المستَشْفى، بل نام في حُضْنِ زوجتِه.. نِكايَةً في الزمن.. في السَّرد.. في الكاتِب.. في القارئ.. لم تَنْتَه حياة الطفل "عْبِيقَة" تحْت عجلاتِ السيَّارة.. وفي صباح اليومِ المُوالِي. الرجُل الذِي يُسابِق الزمن قبْل إدارةِ مفَاتِيح السيَّارةِ.. يتَذَكَّر الأوراقَ والوثائِقَ.. يَعْرِفُ أنَّه سيَمُرُّ أمام المُدارِ الوحِيد بالمدينة وعَلَيه تَخْفِيف السرْعة اتِّقَاءَ الشرطِي الذي تعَوَّدَ أن يَسْأَلَه نفْسَ السؤال.. الشرطِيُّ يُسارِعُ كالعادَةِ للْوُقُوف أمام أبوابِ المدينة، علَيه أنْ يَكُون في المْكان المُناسِبِ في الوقْتِ المنَاسِبِ.. يَضْبِطُ مُخَالَفاتٍ كثيرةٍ.. يُحَرِّرُ محَاضِرَ كثيرة وبسُرعَةٍ كبيرةٍ، علَيْه أن يُسْرِع، الوقْتُ الذي يُحَرِّرُ فيه مُخَالَفَةً ما تَقَعُ فيه مُخَالَفات كثِيرة.. أمام باب المدرسة يَضَعُ ابْنَه

الصغِير على السَّاعة الثامنة إلا رُبْعاً صباحاً. وفي المُدارِ الوحِيد بالمدينة يكُون مُنْتَصِباً قبْل أنْ تَدُقَّ السَّاعة الثامنة.

يُسابِق السَّائقُ الزمَن.. العجلاتُ تدورُ وتدورُ.. النبضَات تَدُقُّ وتَدُقُّ وتَدُقُّ.. والثواني تَمْضي وتَمْضي.. قدَمُه تَضْغَطُ أكثر وأكثر على دَوَّاسَةِ الوقُود لِتَمْضِي الطريق أكثر وأكثر.. أغانٍ سريعة على أمْواج الإذاعَة.. أصواتُ أبْواقِ سياراتٍ تَحُثُّه على الإسْراع، درَّاجات تُزاحِمه على الطريق، راجِلُون كأنَّهُم يَتَعَمَّدُون التبَاطُؤَ.. إشاراتُ مُرورٍ ضوئِيَّة كأنَّها تَتَعَمَّدُ تأخِيرَه..

المْدَارُ الوحِيد بالمدينة والشرْطِيُّ كالْعادة في مكانِه..

يُوقِفُه..

يسْألُه عنِ الأوراقِ وهو يُؤاخِذُه على السرعة..

يَمُرُّ الطفل "عْبِيقَة" مُطَأْطِئَ الرَّأْس بِبُطْءٍ شدِيدٍ..

يَسْتَرْجِعُ الرجل أوْراقَه مُتَذَمِّراً مُهَمْهِماً ساخِطا وهو يَنظُر إلى ساعتِه، وقبْل أنْ يَنْطلِق يرفَعُ كفَّيهِ مُتَضَرِّعاً لله بِدعاءٍ غريبٍ.

المحتــوى



الساحة ملاذُهُ وهي بيتُ الله، إليها تأوِي القِطط والكلاب الشاردَة، وعلى أشجارها تَحُطُّ طيورُ الصباح.

هو لا يَسْتطيع أن يأْوِي مبكّراً إلى الغُرفة التي تَـنْحَشِر فيها الأجْسادُ الخمسة.

لا بُدَّ أن يَنْتظِر إلى أن يَستيقِظ العالم.. إلى أنْ يَحْظى بِحَيِّزٍ له في الزنزانة التَّي تُسمَّى غرفة.. يسير شارداً مُطأطَأ الرأس بين الشوارع التي بدأتْ تستَيْقِظ، يَعْبُرُ الطريق غير آبِهٍ بالسيارات التي تَمُرُّ كالْبَرق.. يصفَعُه هواءُ السيارات لكنه يُواصِل المشي عساه يَنْعَمُ بِنومَةٍ هَنِيَّةٍ أبدِيَّةٍ في قبرِ خمسِ نجومٍ حيث لن تُزاحمَه الأجسادُ الخمسة..

ISBN 978-9953-594-83-5

9 789953 594835

مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع

تليفون: 00961 3 359788 فاكس: 00961 7 241032
ص. ب: 11/3847 بيروت ـ لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com